حكايات السيد كوينر
وقصص أخــرى

برتولت بريخت

- المؤلف: برتولت بريخت
- العنوان: حكايات السيد كوينر
- ترجمة: أحمد الأقطش
- طبعة آفاق الأولى 2019
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ

- Author : Bertolt Brecht
- Title: Geschichten vom Herrn Keuner
- Translated by: Ahmed Al Aqtash
- Afaq's first edition: 2019
- Cover Design by: Amr El Kafrawy
- Publishing Consultant: Sawsan Bashier
- General Manager: Mostafa Alsheikh

رقم الإيداع:
٢٠١٨ / ١٧٧٨٥
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 183 - 7

جميع الحقوق محفوظة؛ لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال؛ دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

برتولت بريخت

حكايات السيد كوينر

وقصص أخرى

ترجمة

أحمد الأقطش

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

بريخت، برتولت.

برتولت بريخت : حكايات السَّيد كوينر وقصصٌ أخرى

ترجمة: أحمد الأقطش

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2019

176 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 17785 / 2018

الترقيم الدولي 978 – 977 – 765 – 183 – 7

1 – الأدباء (روايات)

2 – بريخت، برتولت

حكايات السَّيد كوينر

مقدمة المترجِم

(١)

في عام ١٩٧٨ نشرت صحيفة *Die Zeit*، إحدى أشهر الصحف الألمانية، قائمةً بأهم مائة كتاب قصصي في العالم. اشتملت هذه القائمة على الأعمال القصصية الخالدة من العصر الإغريقي وحتى القرن العشرين بالتسلسل الزمني، مع استبعاد المسرحيات والقصائد والكتب الأخرى. كانت المفارقة أن تتضمن القائمة كتابًا للمؤلف المسرحي الشهير بريخت جنبًا إلى جنب مع كتب توماس مان وفرانتس كافكا وهرمان هسّه وغيرهم من أعلام السرد الألماني. ذلك الكتاب هو «حكايات السَّيد كوينر»، الذي جُمع وطُبع بعد وفاة مؤلفه بعدة أعوام.

وتعود قصة هذا الكتاب إلى عام ١٩٣٠ وهو العام الذي نشر فيه بريخت عددًا من النصوص القصصية القصيرة في دورية *Versuche* الأدبية ببرلين، تحت عنوان «*Geschichten vom Herrn Keuner* حكايات السَّيد كوينر». وبعد ذلك بعامين نشر في نفس الدورية نصوصًا أخرى تحت نفس العنوان. وبعد انقضاء سنوات المنفى التي امتدت في حياة بريخت من عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٤٨، قام بانتقاء بعض النصوص السابقة وأضاف إليها نصوصًا جديدة، ليصل المجموع إلى ٣٩ نصًّا، ويقوم بعد ذلك بنشرها تحت نفس العنوان في آخر كتابه «*Kalendergeschichten* حكايات المفكرة» الذي نشره عام ١٩٤٩ببرلين، واشتمل على عدد من القصص القصيرة والقصائد. وفي عام ١٩٥٣ انتقى بريخت بعض هذه النصوص الأخيرة وأعاد نشرها في نفس الدورية المذكورة.

وبعد وفاة بريخت اكتُشفت نصوص أخرى من حكايات السَّيد كوينر لم ينشرها بريخت في حياته، فانضمَّت إلى أخواتها، وطُبعت ضمن الأعمال الكاملة. وفي عام ١٩٦٥ قامت دار *Suhrkamp* بفصل هذه النصوص ونشرها في كتاب مستقل بنفس العنوان وهو

«حكايات السَّيد كوينر» يشتمل على ٨٧ نصًّا من هذه الحكايات، أي أكثر مِن ضِعف عدد النصوص المنشورة في كتاب «حكايات المفكرة».

أما المكتبة الإنجليزية؛ فلعل المرة الأولى التي تظهر فيها نصوص كوينر هي عندما قامت المترجمة إيڤون كاپ[١] في عام ١٩٦١ بترجمة قصص كتاب «حكايات المفكرة» إلى الإنجليزية[٢]، ليطالع القارئ الإنجليزي جانبًا من الكتابة السردية للرجل الذي اشتهر في العالم بمسرحه الملحمي. وعلى الرغم من أن مجموعة نصوص كوينر قد خرجت إلى النور بالألمانية في كتاب مستقل بعد هذه الترجمة بأعوام قليلة، إلا أن المكتبة الإنجليزية فيما يبدو ظلَّت طوال أربعين عامًا لا تعرف شيئًا عن «حكايات السَّيد كوينر» إلَّا تلك النصوص الموجودة ضمن «حكايات المفكرة». إلى أن قام مارتن تشامرز[٣] في عام ٢٠٠١ بترجمة كتاب «حكايات السيد كوينر» إلى الإنجليزية[٤]، وهي الترجمة التي اعتمدتُ عليها هنا.

---

(1) Yvonne Kapp.

(2) Tales from the Calendar.

(3) Martin Chalmers.

(4) Stories of Mr. Keuner.

وأما المكتبة العربية فقد قام بوعلي ياسين بترجمة كتاب بريخت «حكايات المفكرة» عن الألمانية ونشره في عام ١٩٩٢ بعنوان «أوراق من الرزنامة» وهو العنوان المكتوب على غلاف الكتاب في طبعته الأولى، أما العنوان الداخلي فكان «قصص من الرزنامة»، وهو العنوان الذي صدرت به الطبعة الثانية بعد ذلك في عام ٢٠٠٠. وقد أضاف بوعلي ياسين إلى نصوص كوينر الموجودة في «حكايات المفكرة» أربعة نصوص من خارج الكتاب وقف عليها في مصادر أخرى، ليكون مجموع هذه النصوص المترجمة إلى العربية هو ٤٣ نصًّا. والآن وبعد مرور أكثر من ربع قرن على ترجمة بوعلي ياسين للكتاب المذكور، تأتي ترجمة كتاب «حكايات السيد كوينر» ليكون بمقدور القارئ أن يطالع هذه المجموعة ذات السبعة والثمانين نصًّا.

(٢)

ما هي «حكايات السَّيد كوينر»؟ هل هي قصص قصيرة؟ هل هي رواية؟ هل هي لون سردي مغاير؟ في الحقيقة لقد ترك لنا بريخت هذه النصوص وترك لنا معها كثيرًا من التساؤلات حول شكلها ومضمونها. فهي ليست قصصًا بالمعنى الشائع للكلمة، فكل نص من هذه النصوص -وإن كان يتمحور حول الشخصية الأساسية التي هي السيد كوينر- هو نص قائم بذاته يدور حول موقف معين دون أن يَلزم مِن ذلك وجود خط زمني أو حتى حدث. لذلك فكل حكاية من حكايات كوينر هي أشبه ما تكون بالأمثولة أو القصة الرمزية ذات المغزى، وهذا اللون من القصص يحفل به التراث الديني والشعبي، كما يتجلى أيضًا في القصص التعليمية.

مَن هو السيد كوينر إذنْ؟ ثمة محاولات لمعرفة أصل هذا الاسم الذي سكَّه بريخت، لعل أشهرها هو ما أفصح عنه صديقه الناقد الألماني ڤالتر بنيامين[٥] الذي أرجع اشتقاق هذا الاسم إلى الكلمة الألمانية *keiner*

(5) Walter Benjamin.

التي تُنطق (كاينر) وتعني (لا أحد)، فقد ذكر بريخت أن أحد معلِّميه قديمًا كان ينطق بلهجته المحلية حرفي (*ei* آيْ) مثل حرفي (*eu* أُويْ). فعلى هذا التفسير يمكن النظر إلى كوينر باعتباره رجلًا بلا كينونة محددة، رجلًا بلا هوية تفصح عن طبيعة وجوده، رجلًا بلا اسم حقيقي كسائر الناس، رجلًا وإن كان يبدو من لحم ودم إلا أنه ليس سوى قناع يخفي خلفه روحًا شفافة تبث تعاليمها بين بني البشر.

ولئن كان بريخت قد ضَنَّ علينا بالتعريف بكوينر وتفاصيل حياته، إلا أنه قد خلع عليه صفة «المفكر» التي أحيانًا ما يستخدمها بريخت كما لو كانت لقبًا لبطل هذه الحكايات. فكأنَّ التفكير في حد ذاته هو وظيفة كوينر ومهنته التي يمتهنها ويُعْرَف بها بين الناس، ومن هنا يكون من الطبيعي أن ينهل الذين حولَه مِن مَعين حِكمته وأن يسألوه عن آرائه ومعتقداته في شتى مناحي الحياة، وبالتالي يكون له تلاميذ ومريدون. ولا تبتعد هذه الصورة كثيرًا عن صورة المعلم الحكيم الذي يُفاجئ تلاميذه بالمفارقات الصادمة ويوقِفهم على الحقائق المغيَّبة، ولا مانع في سبيل ذلك مِن ضرب الأمثال ورواية القصص.

ومن المثير حقًّا أن نعلم أن بريخت في الأساس قد

اخترع هذه الشخصية في إحدى مسرحياته التجريبية غير المكتملة وهي «*Fatzer* فاتسر» التي بدأ كتابتها في أواخر العشرينيات ونشر بعض فصولها في نفس الدورية التي نشر فيها نصوص كوينر، وهي تحكي عن أربعة جنود فروا أثناء الحرب العالمية الأولى إلى إحدى المدن الصناعية الألمانية على أمل أن تقوم ثورة تنهي الحرب. ويظهر كوينر في هذه المسرحية، وهو أحد الجنود الأربعة، باعتباره شخصًا عقلانيًّا يجيد التعامل مع الواقع. ويبدو أن بريخت أراد تفجير طاقات هذه الشخصية في إطار قصصي أوسع نطاقًا من الحيز الذي شغلته في المسرحية المذكورة، وهكذا اكتسب كوينر وجوده في نصوصه الخاصة به.

(٣)

على الرغم من أن هذه الترجمة لحكايات السيد كوينر تمت عن الترجمة الإنجليزية، إلا أنني عدت إلى النص الألماني للوقوف على ألفاظ بريخت الأصلية والتعرف على المعاني المتنوعة لهذه الألفاظ في اللغة الألمانية. وقد استعنت في هذا باثنين من القواميس

الألمانية الإنجليزية الموسعة، وكان لهذا أثره على اختياري للألفاظ العربية التي ارتأيت ملاءمتها. فمن أمثلة ذلك أن بريخت استخدم في الحكاية الثالثة كلمة *Gewalt* التي ترجمها تشامرز بالإنجليزية إلى *power* التي تعني: القوة والنفوذ والسلطة، وهي ترجمة سليمة بلا شك. ولكن مِن معاني الكلمة الألمانية أيضًا: *force* و*violence* وهما ذواتا دلالة عدائية وتعنيان: العنف والقهر والبطش. وحسنًا فعل بوعلي ياسين فترجمها إلى: القمع.

ولا ينبغي في هذا المقام إنكار قيمة الترجمة العربية التي قام بها بوعلي ياسين لعدد من هذه النصوص عن الألمانية، وقد استفدتُ منها شخصيًّا، وإن كان هناك بالطبع مجال لاختلاف الرؤية والصياغة والمآخذ أحيانًا. كما أنني استرشدت أيضًا بترجمة إيڤون كاپ الإنجليزية لنصوص كوينر في «حكايات المفكرة» نظرًا لتحررها مقارنةً بالصياغة التي اتسمت بها ترجمة تشامرز.

(٤)

وبعد.. فلعل هذه الترجمة تكون دافعًا لمترجمينا -وبخاصة المشتغلين بالترجمة عن الألمانية- أن يقتحموا العالم القصصي المنسي لبريخت، بعد أن طبقت شهرته الآفاق باعتباره كاتبًا مسرحيًّا وشاعرًا. وحينها ستظهر أجزاء جديدة من تلك الصورة التي ظننَّا أنها كاملة.

أحمد الأقطـش

بورسعيد ٢٠١٨

حكمة الحكيم في هيئته

جاء أحد أساتذة الفلسفة لزيارة السَّيد ك، وجعل يحدثه عن حكمته. وبعد هنيهة قال له السَّيد ك:

– إن جلوسك غير مريح، وكلامك غير مريح، وتفكيرك غير مريح.

فغضب أستاذ الفلسفة، وقال:

– إنني لم أُرِدْ أن تخبرني برأيك فيَّ أنا، بل في مضمون ما قلته.

فقال السَّيد ك:

– ما قلته ليس له مضمون. إنني أراك تتمشى بطريقة سخيفة، وأتابع سيرك فلا أجد لك غاية محددة تصل إليها، وأمَّا كلامك فمبهمٌ، ولم تكلِّف خاطرك أن تقوم بإيضاح ما تقول. إنني من رؤية هيئتك لست مهتمًّا بمعرفة غايتك.

* * *

تنظيمٌ

قال السَّيد ك ذات مرةٍ:

- إن المفكر لا يستخدم نورًا أكثر مما ينبغي، ولا كسرة خبز أكثر مما ينبغي، ولا فكرة أكثر مما ينبغي.

* * *

تدابير لمناهضة القهر

بينما كان السَّيد كوينر -المفكر- يُلقي خطابًا مناهضًا للقهر أمام جمهور عريض في إحدى القاعات، لاحظ أن المتواجدين أمامه يتقهقرون ويغادرون. فالتفت حوله، وإذا به يراه واقفًا وراءه، إنه القهر.

- ما الذي كنتَ تقوله؟

سأله القهر، فأجاب السَّيد كوينر:

- لقد كنتُ أخطب مناصرًا للقهر!

ولـمَّا انصرف السَّيد كوينر، سأله تلاميذه عمَّا أصاب ظهره. فأجاب:

- ليس ظهري بالذي ينكسر، فأنا مَن عليه أن يعيش أطوَل من القهر.

ثم قصَّ السَّيد كوينر هذه القصة:

أتى أحد العناصر ذات يومٍ في زمن اللا شرعية إلى شقة السَّيد إيجه -الرجل الذي تعلَّم أن يقول: «لا»- وأراه مرسومًا صادرًا عن الذين يحكمون المدينة مفاده أنَّ أي شقة تطؤها قدمه يحق له أن

يملكها، وأي طعام يشتهيه يحق له أن يحصل عليه، وأي إنسان يقع بصره عليه يحق له أن يتخذه خادمًا.

جلس العنصر على أحد المقاعد وطلب طعامًا، ثم اغتسل واستلقى على الفراش. وقبل أن يخلد إلى النوم، قال ووجهه إلى الحائط:

- هل لك أن تخدمني؟

بسط السَّيد إيجه عليه الغطاء، وذبَّ عنه البعوض، وجلس يحرسه أثناء نومه. على هذا الحال يومها مكث السَّيد إيجه وهو يطيعه سبع سنوات. إلَّا أنه مع كل ما كان يقوم به للعنصر كان حريصًا على ألَّا يفعل شيئًا واحدًا وهو أن ينطق ولو بكلمة.

ولـمَّا انقضت السنوات السبع وأصبح العنصر شديد البدانة جراء الأكل والنوم وإصدار الأوامر، لقي حتفه. عندئذٍ لفَّه السَّيد إيجه في الغطاء المتهالك وطرحه خارج المنزل، ونظَّف الفراش، وبيَّض الحوائط. ثم تنفس الصعداء وأجاب: «لا».

* * *

عن حاملي المعرفة

قال السَّيد كوينر:

– مَن يحمل المعرفة ليس عليه أن يُناضل، أو يصدع بالحقيقة، أو يصنع المعروف، أو يزهد في الدنيا، أو يترفع عن الأوسمة، أو يشتهر بين الناس. مَن يحمل المعرفة ليس له من الفضائل إلَّا فضيلة واحدة: أنه يحمل المعرفة.

* * *

عبد الغرض

طرح السَّيد ك الأسئلة التالية:

- في كل صباح يقوم جاري بتشغيل الموسيقى على مشغل الأسطوانات. لماذا يشغل الموسيقى؟ لأنه يتمرن، هكذا سمعتُ. ولماذا يتمرن؟ لأنه بحاجة إلى القوة، هكذا سمعتُ. ولماذا هو بحاجة إلى القوة؟ لأنَّ عليه أن يقضي على أعدائه في المدينة، هكذا يقولُ. ولماذا عليه أن يقضي على أعدائه؟ لأنه يريد أن يحصل على القوت، هكذا سمعتُ.

بعد أن سمع السَّيد ك أن جاره يشغل الموسيقى ليتمرن، ويتمرن ليصبح قويًّا، ويريد أن يصبح قويًّا ليبيد أعداءه، ويبيد أعداءه لكي يحصل على القوت، طرح هذا السؤال:

- ولماذا يحصل على القوت؟

* * *

معاناة الفضلاء

سئل السَّيد ك:

- ما الذي تقوم به؟

فأجاب السَّيد ك:

- إنني أَمُرُّ بوقتٍ عصيبٍ: فأنا أقوم بتجهيز غلطتي التالية.

* * *

فنُّ عدم الرشوة

قام السَّيد ك بتزكية أحدهم لدى أحد التجار لطهارة يده. وبعد أسبوعين رجع التاجر إلى السَّيد ك، وسأله:

- ماذا كنت تقصد بطهارة اليد؟

فقال السَّيد ك:

- قولي عن الرجل الذي قمتَ بتوظيفه إنه طاهر اليد معناه أنك لا تستطيع رشوته.

فقال التاجر في أسى:

- حسنًا، إن لديَّ ما يبرر خشيتي أنَّ صاحبك قد يرشوه حتى أعدائي.

فقال السَّيد ك دون اكتراث:

- لا عِلم لي بهذا.

فصاح التاجر بحرقة:

- لكنه دائمًا ما يخبرني بما أود سماعه، لذا فهو يتقبل أن أرشوه!

حينئذٍ ابتسم السَّيد ك ابتسامة متباهية، وقال:

- أمَّا بالنسبة لي فهو لا يتقبل أن أرشوه.

❊ ❊ ❊

حب الوطن كره الأوطان

لم يكن من الضروري عند السَّيد ك أن يعيش المرء في بلد محدد، بل قال:

- يمكنني أن أجوع في أي مكان.

لكنه ذات يوم وهو يسير في إحدى المدن التي احتلها أعداء البلد الذي كان يعيش فيه، اعترضه ضابط من هؤلاء الأعداء، فأجبره على النزول عن الرصيف. نزل السَّيد ك وقد أحس في نفسه سخطًا تجاه هذا الرجل، ليس هذا الرجل فحسب بل بالأحرى البلد الذي ينتمي إليه الرجل حتى تمنَّى لو أنه محي من على وجه الأرض.

وهنا تساءل السَّيد ك:

- ماذا دهاني حتى صرت قوميًّا في تلك اللحظة؟ هذا لأنني واجهت شخصًا قوميًّا. من أجل ذلك ينبغي استئصال هذه الحماقة؛ لأنها تجعل مَن يواجهها أحمق.

* * *

الرديءُ ليس رخيصًا أيضًا

حين تفكَّر السَّيد كوينر في أحوال الناس، جالت في ذهنه خواطر عن توزيع الفقر. وذات يوم وهو يجول ببصره في شقته، رغب في أن يكون أثاثه مختلفًا عمَّا عليه، فيكون رديئًا رخيصًا متواضعًا. فانطلق في الحال إلى النجار وطلب منه أن يكشط الطلاء عن أثاثه. لكن الأثاث لـمَّا كُشط الطلاء عنه لم يـبدُ متواضعًا وإنما تعرض للتخريب. إلا أن السَّيد كوينر كان عليه أن يدفع فاتورة النجار، ولم يجِدْ بُدًّا حينئذٍ مِن أن يتخلص من أثاثه ويشتري أثاثًا جديدًا متواضعًا رخيصًا رديئًا، فهكذا كانت رغبته.

ولـمَّا علم بذلك بعض الناس، سخروا من السَّيد كوينر؛ لأن قيمة أثاثه المخرَّب هذا تفوق قيمة الأثاث المطلي. فما كان من السَّيد كوينر إلَّا أن قال:

– ليس الفقر بالافتقار إلى الادخار، بل إلى الإنفاق. إنني أعرفكم تمام المعرفة: فأنتم أذهانكم لا يتوافق معها فقركم، وأما أنا فذهني فلا يتوافق الغِنى معه.

الجــوع

قال السَّيد ك مجيبًا ذات مناسبةٍ وقد سُئل عن الوطن:

- يمكنني أن أجوع في أي مكان.

فسأله أحد السامعين النَّابهين: من أين له أن يتحدث عن الجوع وهو في حقيقة الحال يملك القوت؟!

فقال السَّيد ك مبررًا كلامه:

- ربما أردتُ أن أقول إن بإمكاني العيش في أي مكان لو أنني أردت أن أعيش في مكان يهيمن عليه الجوع. إنني أقر بأن هناك فرقًا كبيرًا بين أن أجوع أنا وبين أن أعيش في مكان يهيمن عليه الجوع. ولكن عذري في ذلك هو أن العيش بالنسبة لي في مكان يهيمن عليه الجوع إن لم يكن سيئًا كالعيش وأنا جائع، فإنه شيء بالغ السوء على أقل تقدير.

قد لا يعني الآخرين إن كنت أتضور جوعًا أم لا، لكنه يعنيني أنا أن أكون مناهضًا لهيمنة الجوع.

نصيحة عندما لا يؤخذ بالنصيحة

رأى السَّيد ك أن كل نصيحة صادقة ينبغي أن تُشفع إن أمكن بنصيحةٍ أخرى عند تعذُّر الأخذ بتلك النصيحة. فهو مثلًا عندما أسدى النصح لشخص في مأزق بأن يقوم بتصرف معين قد يُلحق ضررًا ببعض الأشخاص، أرشده في الوقت نفسه إلى تصرف آخر هو وإن لم يكن أسلم لكنه ليس أسوأ.

ثم قال:

- مَن عجز عن الكُل، لا يُترك له الجُل.

* * *

أصالة

قال السَّيد ك شاكيًا:

– هناك اليوم مَن لا حصر لهم ممَّن يتفاخرون عيانًا بقدرتهم على تأليف كتب عظيمة من بنات أفكارهم، والعامة تقر لهم بذلك. إن الفيلسوف الصيني تشوانج تسي ألَّف في كهولته كتابًا من مائة ألف كلمة، تسعة أعشاره عبارة عن اقتباسات. مثل هذه الكتب يتعذر تأليفها في زماننا؛ لأن توقُّد الذهن منعدم.

وعلى هذا صارت الأفكار ينتجها المرء في ورشته الخاصة، بحيث يكون الكسول هو مَن لا ينتج ما يكفي منها. وبالتأكيد لا وجود في هذه الحالة لأفكار يمكن تبنيها أو صيغ فكرية يمكن اقتباسها. ما أقل ما يحتاجه هؤلاء جميعًا في عملهم! ورقة وقلم، هذا هو كل ما في حوزتهم! إنهم دون أي مساعدة، خلا المواد الهزيلة التي يقدر أي إنسان على حملها في يده، يشيدون أكواخهم! إن أكبر بناء يعرفونه هو ما يمكن لشخص واحد أن يبنيه!

سؤال عن وجود إلهٍ

سأل أحدهم السَّيد ك عن إذا كان هناك إله أم لا، فقال السَّيد ك:

– نصيحتي لك أن تفكر جيدًا إن كان سلوكك سيتغير بناءً على إجابة هذا السؤال أم لا. فإن كان لن يتغير، فحينئذٍ يمكننا إسقاط السؤال. أما إن كان سيتغير، فيمكنني إذنْ أن أقدم لك شيئًا من المساعدة، فأقول لك إنك بالفعل قد قررتَ أنك بحاجة إلى إله.

* * *

الحق في الضعف

قام السَّيد ك بمساعدة أحدهم وكان في ضائقةٍ، فلـمَّا انقضت لم يقُم هذا الشخص بأي شكر من أي نوع. حينها فاجأ السَّيد ك أصدقاءه بصياحه وهو يشكو جحود هذا الشخص. لكنهم اعتبروا تصرُّف السَّيد ك تصرفًا غير لائق، حتى إنهم قالوا:

– ألا تعلم أن على المرء ألَّا يسعى إلى امتنان الآخرين، فإن الإنسان أضعف مِن أن يقوم بذلك؟

فقال السَّيد ك متسائلًا:

– وماذا عني، ألستُ إنسانًا؟ لماذا لا يمنعني ضعفي من طلب الامتنان؟ إن الناس دائمًا ما يعتقدون أنهم حين يعترفون بأنهم تعرضوا لعمل وضيع فإنهم بهذا يقرُّون على أنفسهم بالغباء. مِن أين لهم ذلك؟

* * *

الصَّبيُّ العاجز

تحدث السَّيد ك عن إحدى العادات السيئة حين يضع المرء لسانه في فمه إذا تعرض للظلم. ثم قص القصة التالية:

كان هناك صبيٌّ يـبكي بينه وبين نفسه، فسأله أحد المارة عما أصابه. فقال الصبي:

- كان معي قِرشان للسينما، فجاء صبي وانتزع أحدهما من يدي.

وأشار إلى صبي يلوح من بعيد. فسأله الرجل:

- ألم تصرخ طلبًا للمساعدة؟

- بلى.

قالها الصبي وقد علا نشيجه.

فربت الرجل عليه ملاطفًا له وسأله:

- وهل سمعك أحدٌ؟

- لا.

قالها الصبي وقد خنقته الدموع. فسأله الرجل:

- أيمكنك الصراخ أعلى من ذلك؟

- لا.

نظر الصبي إليه وقد أحس بالأمل يتجدد، فقد وجد الرجل يبتسم.

- إذنْ، هاتِ هذا القرش أيضًا.

قالها الرجل وأخذ القرش الآخر من يد الصبي، وانطلق في طريقه دون اكتراث.

* * *

السَّيد ك والطَّبيعة

سُئل السَّيد ك عن علاقته بالطبيعة، فقال:

– إنني من حين لآخر أرغب عندما أترجل من المنزل أن أرى بعض الأشجار. فهي بالذات، نظرًا لتنوُّع مظهرها حسب أوقات اليوم وفصول السَّنة، تبلغ درجة عالية من الواقعية. كما أننا في المدن وبمرور الوقت يزيد مِن تشوشنا أنَّ أعيننا دائمًا لا ترى إلا أشياء استهلاكية، فالمنازل والطرق إن لم تُسكن تصبح خاوية، وإن لم تستعمل تصبح بلا جدوى. بل إن نظامنا الاجتماعي العجيب يعتبر البشر أنفسهم ضمن هذه الأشياء الاستهلاكية.

من هنا فإن الأشجار –على الأقل بالنسبة لي ولستُ بنجار– فيها شيء مريح قائم بذاته، شيء لا يستمد جدواه مني. بل إني لأتمنى أن يكون فيها حتى بالنسبة للنجار شيء مرغوب لذاته وليس شيئًا استهلاكيًّا.

– طالما أنك تود رؤية الأشجار، فلماذا لا تقوم كل فترة بجولة في الخلاء؟

سئل السَّيد كوينر، فأجاب مندهشًا:

- لقد قلت إنني أرغب في رؤيتها عندما أترجل من المنزل.

(وقال السَّيد ك أيضًا:

- لا بد لنا أن نعمل على استخدام الطبيعة استخدامًا رشيدًا، فالبقاء في الطبيعة بلا عمل من السهل أن يصيبك بالإعياء، فتتعرض لشيء أشبه ما يكون بالحمى.

* * *

أسئلةٌ مقنعةٌ

قال السَّيد ك:

- لقد لاحظت أننا نصدُّ كثيرًا من الناس عن تعاليمنا لكوننا نعرف جواب كل شيء. ألا يمكننا ولو من باب الدعاية أن نضع قائمة بالأسئلة التي تبدو بلا إجابات بتاتًا؟

* * *

التزامٌ

لبث السَّيد ك، وهو المناصر لمنظومة العلاقات الإنسانية، متورطًا في نزاعات طوال عمره. وذات يوم وجد نفسه متورطًا من جديد في أمر لا يُحسد عليه، مما جعل لزامًا عليه أن يحضر عددًا من اللقاءات تلك الليلة في عدة أماكن متباعدة عن بعضها البعض في المدينة. ونظرًا لظروف مرضه طلب من أحد أصدقائه أن يعيره معطفه. فوعده بذلك، مع أنه سيضطر بهذا إلى إلغاء أحد مواعيده غير الضرورية.

وبحلول المساء ازدادت حالة السَّيد ك سوءًا لدرجة أن مشاويره هذه لم تعُد ذات جدوى، فصار عليه القيام بشيء مغاير. ومع ذلك وعلى الرغم من ضيق الوقت، إلا أن السَّيد ك حرصًا منه على أن يحافظ على الموعد وصل في وقته المحدد وجلب المعطف الذي لم تعُد له فائدة.

* * *

لقاءٌ بعد غيابٍ

لقي أحدهم السَّيد ك ولم يكن قد رآه منذ زمن بعيد، فسلم عليه وقال:

– إنك لم تتغير قط.

فقال السَّيد ك:

– أوه!

وامتقع وجهه.

* * *

عن اختيار الوحوش

لـمَّا سمع السيد كوينر -المفكر-
أن أشهر مجرم في مدينة نيويورك
مهرِّب الوقود والقاتل الجماعي
قد أردوه قتيلًا كالكلب
ودفنوه بلا مراسم،
لم يتمالك نفسه مِن الذهول.
فقال: كيف بلغ بنا الحال
أن المجرم لا يأمن على حياته
ومَن لا حيلة له
يحظى بالأمان؟
جميعنا يعرف أن المتمسكين بكرامتهم الإنسانية
هم في مهب الضياع
أمَّا مَن يتجردون منها!

أينبغي أن تكون المقولة هكذا:

مَن يفلت من القاع، يسقط على القمة!

الطيبون ينهضون في الليل من نومهم وهم يتصببون عرقًا

يرتجفون مِن أي وقعٍ للأقدام، وإن كان شديد الخفوت

تطاردهم ضمائرهم الطيبة حتى وهم نائمون

أمَّا الآن فها أنا أسمع أن المجرم هو الآخر

لم يعد بمقدوره أن ينام بسلام!

وا حيرتاه!

أي زمان هذا!

ففي وجود أبسط معاني الخسة، مثلما سمعتُ

لن يُقْدِم أحد على فعل شيء بعد الآن.

في وجود سفك الدماء

لن يعود أحد يستطيع أن يغدو ويروح

اكتشاف خيانتين أو ثلاث في الصباح:

سيكون أي أحد مستعدًّا لذلك.

فأي جدوى إذنْ للإرادة

إذا كانت العبرة بالاستطاعة!

حتى انعدام المبادئ لم يعُد كافيًا:
فالقوة هي صاحبة القول الفصل!
وهكذا يُساق حتى الملعون
إلى القبر بلا ضجيج.
إلى حيث يقبع جم غفير من أمثاله
لا يميزه عنهم شيء.
إن مَن قضى حياته لا يملك شيئًا من المال
لن يحصل على قبر أرخص مِن هذا!

جرائم قتل عديدة
وحياة قصيرة!
فظائع كثيرة
وأصدقاء قليلون!
لو أنه كان من الفقراء
لما كان مثواه أسوأ مما هو عليه.
فكيف لنا عند رؤية مثل هذه الوقائع
ألا تنخلع قلوبنا؟
لأي شيء ما زلنا نخطط؟

وأي جرائم ما زلنا ندبر؟

ما أسوأ الحال وما أصعب الأفعال!

قال السيد كوينر: عند رؤيتنا لهذا

لا نملك إلا أن نكون من اليائسين.

* * *

الشَّكل والجوهر

نظر السَّيد كوينر في إحدى اللوحات، فوجد أشكال الأشياء فيها شديدة الفرادة. فقال:

– إن بعض الفنانين عندما ينظرون إلى العالم، يكونون مثلهم مثل كثير من الفلاسفة، يُجهدون أنفسهم في الشَّكل فيضيع الجوهر.

لقد كنت يومًا من الأيام أعمل لدى شخص بستاني، فأعطاني مقصًّا وطلب مني أن أشذب إحدى أشجار الغار. كانت الشجرة منصوبةً في جرة، وقد استؤجرت لغرض الاحتفال، والمطلوب أن تكون كروية الشكل. فشرعتُ من فوري أقص الفروع الناتئة، لكنني مهما كنتُ أحاول جاهدًا أن أصنع الشكل الكروي، لم يكن يحالفني التوفيق، فمكثت على هذا فترة طويلة. أبتدئ بقصِّ الشيء الكثير في جانب، ثم أنتقل إلى الجانب الآخر. ولـمَّا صارت الشجرة في آخر المطاف على شكل كرة، كانت الكرة صغيرة جدًّا.

فما كان من البستاني إلَّا أن قال بخيبة أمل:

– حسنًا، هذه هي الكرة، لكن أين الشجرة؟

محادثاتٌ

قال السَّيد ك لأحدهم:

– لمْ يعُد ممكنًا أن نتحدث مع بعضنا البعض.

– ولمَ؟

سأله الرجل في جزعٍ. فقال السَّيد ك متبرمًا:

– إنني لا أطرح أي شيءٍ وجيهٍ في وجودك.

– لكن هذا لا يمثِّل لي مشكلةً.

قالها الرجل محاولًا طمأنته. فقال السَّيد ك وهو محتدٌّ:

– أعرف هذا، ولكنه يمثِّل مشكلةً لي أنا!

* * *

حُسن الضيافة

كان السَّيد ك إذا حلَّ ضيفًا على أحدهم، يترك غرفته على الحالة التي وجدها عليها؛ لأنه يرى أن على الناس ألَّا يتركوا بصماتهم على ما حولهم. بل على العكس، كان يسعى جاهدًا لتغيير طبيعته بما يتلاءم مع إقامته، مع حرصه في ذات الوقت على ألَّا يؤدي ما يخطط له إلى معاناته.

أما إذا استضاف السَّيد ك أحدًا عنده، فكان يقوم على الأقل بنقل أحد المقاعد أو المناضد من موضعها السابق إلى موضع آخر ليحظى ضيفه بالعناية. وكان يقول:

– مِن الأفضل أن أقوم أنا بتحديد ما يناسبه.

* * *

إذا أحب السَّيد ك أحدًا

سُئل السَّيد ك:

- ماذا تفعل إذا أحببتَ أحدًا؟

فقال:

- أقوم برسمٍ تخطيطيٍّ له، وأتأكد أنه يشبهه.

- تقصد الرسم؟

فقال السَّيد ك:

- لا، بل الشخص.

* * *

عن خلل فكرة «اليوم بيومه»

حَلَّ السَّيد ك ضيفًا ذات يوم على بعض المعارف البعيدين، فاكتشف أن مضيفيه قد وضعوا صينية الفطور لليوم التالي على منضدة صغيرة في أحد الأركان بغرفة النوم قبالة الفراش. ظلت الفكرة تشغل باله بعد أن أعجبه في البداية مسارعة مضيفيه إلى استقباله. وجعل يفكر فيما إذا كان هو أيضًا قد يجهز صينية الفطور ليلًا قبل أن يأوي إلى الفراش.

وخلص بعد تفكير إلى أنه من الصواب أن يقوم بهذا في أوقات معينة. وخلص أيضًا إلى أنه من الصواب أن ينشغل الآخرون بهذه المسألة ولو وقتًا يسيرًا كل فترة.

* * *

نجاحٌ

رأى السَّيد ك إحدى الممثلات تمشي بالقرب منه، فقال:

- إنها جميلة.

فقال له صاحبه:

- لقد أصبحت ناجحة مؤخرًا لأنها جميلة.

فامتعض السَّيد ك، وقال:

- بل هي جميلة؛ لأنها أصبحت ناجحة.

* * *

السَّيد ك والقطط

السَّيد ك لا يحب القطط، فهي لا تبدو بالنسبة له صديقة للبشر. ولهذا فهو بالمثل لم يكن صديقًا لها. وكان يقول:

– لو كانت لنا نفس الاهتمامات، لما اكترثتُ حينها لعدوانيتها.

لكن السَّيد ك لم يكن يطردها من على مقعده إلَّا وهو كاره، فقد قال:

– إن الاسترخاء من الأمور التي ينبغي أن تتم بنجاح.

أمَّا إذا ماءت القطط على بابه، فإنه ينهض من فراشه حتى وإن كان الطقس باردًا ويدخلها إلى الدفء.

– إنَّ للقطط حساباتها البسيطة. فهي حين تصيح يُفتح لها الباب، فإن لم يُفتح فلن تعود للصياح. فكونها تواصِل الصياح فهذا تقدُّم.

* * *

الحيوان المفضل للسَّيد ك

عندما سُئل السَّيد ك عن حيوانه المفضل، قال: إنه الفيل، وبرر اختياره على النحو التالي:

إن الفيل يجمع بين الدهاء والقوة. وليس هذا بالدهاء التافه الذي يكفي لتجنُّب الفخاخ أو للتحايل في الحصول على الطعام، ولكنه الدهاء المرهون بالقوة عند المهام الكبيرة. فهذا الحيوان أينما ذهب يسهل اقتفاء آثار أقدامه الكبيرة. وهو مع ذلك طيب القلب ومَرِح بطبعه. إنه صديق جيد، كما أنه عدو جيد. ومع كونه شديد الضخامة شديد الثقل، إلا أنه شديد السرعة أيضًا. وخرطومه يجلب لجسده الكبير أصغر الأطعمة حتى وإن كان الفول. وأمَّا أذناه فيمكنه ضبطهما، فهو لا يسمع إلا ما يريد سماعه. كما أنه يعمَّر طويلًا.

وهو اجتماعيٌّ كذلك، وليس هذا وسط جماعة الأفيال فحسب، فهو محبوب ومهيب أينما حلَّ. ولديه من الفكاهة الفريدة ما يمكن أن يجعله معشوقًا من الجميع. ومع أن جلده غليظ وتنكسر السكاكين فيه، إلا أنه رقيق المشاعر. فقد يحزن، وقد يغضب. وهو يعشق الرقص. ويقضي نحبه في الأحراش. ويحب صغاره بل وصغار الحيوانات

الأخرى. ونظرًا للونه الرمادي فما يلفت الأنظار إليه هو ضخامته. وأمَّا لحمه فلا يؤكل. وهو بارع في العمل الذي يقوم به، ويحب الشرب والمرح. وهو فوق هذا له إسهام في الفن: فهو الذي يمدُّنا بالعاج.

* * *

العصور القديمة

أمام إحدى اللوحات «البنيوية» للرسام لوندستروم[٦] وقد رُسمت فيها بعض الأواني، قال السَّيد ك:

– إنها لوحة من العصور القديمة، من إحدى الحقب الهمجية! في تلك الأيام لم يكن بمقدور الناس أن يتعرفوا على الأشياء كما هي عليه، فالمستدير لم يعُد مستديرًا، والمدبَّب لم يعُد مدببًا. فكان على الرسامين أن يعيدوا الأشياء إلى أصلها وأن يعرضوا على زبائنهم شيئًا محددًا صريحًا واضح المعالم. لقد كانوا يجدون في كثير مما يرونه إبهامًا وغموضًا وميوعة، ولذلك كانوا متعطشين إلى المصداقية لدرجة أنهم كانوا على استعداد أن يهتفوا بحياة أي إنسان يأبى استغفاله.

كان العمل يتقاسمه كثيرون، وهذا ما يمكن رؤيته من خلال هذه اللوحة. فالذين حددوا أشكال الأشياء لم يهتموا بتحديد الغرض منها، فهذا الإناء لا يمكن صب الماء منه. ومن المؤكد أن كثيرًا من الناس في تلك الأيام كانوا يُعتبرون مجرد أمتعة، فكان على الفنانين أن

(٦) – هو الرسام الدنماركي *Vilhelm Lundstrøm* (١٨٩٣ – ١٩٥٠) أحد رواد الحداثة في الدنمارك.

يقاوموا ذلك أيضًا. يا لها من حقبة همجية من العصور القديمة!

وهنا لفت أحدهم نظر السَّيد ك إلى أن هذه اللوحة تنتمي إلى العصر الحديث. فقال بأسى:

– نعم، من العصور القديمة.

* * *

إجابةٌ ثاقبةٌ

سُئل أحد العمَّال وهو في المحكمة إن كان يريد أن يُقْسِم على الإنجيل أو يؤدي القَسَم العلماني. فأجاب:

- أنا عاطل عن العمل.

قال السَّيد ك:

- ليس في تلك المقولة أي هذيان. فقد كشف من خلال هذه الإجابة أن وضعًا كهذا الذي هو فيه تصبح فيه مثل هذه الأسئلة -بل حتى الإجراءات برمتها- لا معنى لها.

* * *

ثناءٌ

عندما سمع السَّيد ك أن تلاميذه القدامى قد أثنوا عليه، قال:

– مهما طال الزمن بالتلاميذ ونسوا أخطاء المعلِّم، يظل هو مَن يتذكرها.

* * *

مدينتان

كان السَّيد ك يفضل المدينة (ب) على المدينة (أ). فقال:

– لقد أحبوني في المدينة (أ)، أمَّا في المدينة (ب) فكانوا يعاملونني معاملة الأصدقاء. في المدينة (أ) سخَّروا أنفسهم لخدمتي، أمَّا في المدينة (ب) فكانوا بحاجة إليَّ. في المدينة (أ) دعوني إلى المائدة، أمَّا في المدينة (ب) فدعوني إلى المطبخ.

* * *

خدمات الصَّداقة

كمثال على الطريقة الناجعة لإسداء خدمة للأصدقاء، قص السَّيد كوينر القصة التالية[٧]:

جاء ثلاثة شبان إلى رجل عربي مسنٍّ، وقالوا له:

- إن أبانا توفي وترك لنا سبعة عشر جملًا، وكان قد أوصى للولد الأكبر بنصف الإبل، وللأوسط بالثلث، وللأصغر بالتسع. فما استطعنا أن نتفق على حل هذه القسمة، فهلَّا قضيتَ لنا؟

فتفكر العربي، ثم قال:

- أرى أنه يلزمكم جمل آخر حتى تكون القسمة سليمة. إليكم ذلك الجمل الذي لا أملك غيره، فخذوه واقتسموا إبلكم، ثم أحضِروا لي ما تبقى.

فشكروه على هذه الخدمة التي أسداها لهم، وانطلقوا بالجمل،

(٧) هذه القصة تُنسب إلى علي بن أبي طالب، وقد وقفتُ عليها في مصادر شيعية، وهي تعود إلى كتاب "مشكلات العلوم" لأحد شيوخ إيران في القرن الثامن عشر وهو مهدي النراقي، وقد قصَّها بالفارسية (ص٩٠) واستهلَّها بقوله: "يُروى أنَّ".

ثم اقتسموا الثمانية عشر جملًا فيما بينهم: فحصل الأكبر على النصف وهو تسعة، والأوسط على الثلث وهو ستة، والأصغر على التسع وهو اثنان. وإذا بهم يتعجبون عندما وجدوا جملًا متبقيًا بعدما اقتاد كل واحد منهم نصيبه من الإبل. فأعادوا هذا الجمل إلى صديقهم المسن وبقوا له شاكرين.

لقد وجد السَّيد كوينر هذه الخدمة ناجعة تمامًا؛ لأنها لم تتطلب أي تضحيات خاصة.

* * *

السَّيد ك في مسكنٍ غريبٍ

نزل السَّيد ك في مسكن غريب، وقبل أن يلتقط أنفاسه إذا به يتفحص مخارج المنزل دون سواها. ولـمَّا سُئل عن ذلك، أجاب وهو في غاية الإحراج:

– إنها إحدى العادات القديمة الملازمة لي. فالعدل الذي أؤمن به يقتضي أن يكون للمكان الذي أقيم فيه أكثر من مخرج.

* * *

السَّيد ك والاتساق

ذات يوم طرح السَّيد ك السؤال التالي على أحد أصدقائه:

– لقد توطدت علاقتي مؤخرًا بأحد الأشخاص وهو يسكن قبالتي، لكنني الآن لا رغبة عندي في التعامل معه مجددًا. المشكلة ليست فقط في عدم وجود ما يبرر تعاملي معه، بل في عدم وجود ما يبرر قطع هذه العلاقة. لقد اكتشفت أنه عندما اشترى ذلك المنزل الصغير مؤخرًا وقد كان يستأجره من قبل، كانت هناك شجرة برقوق أمام نافذته تحجب الضوء، فقطعها ولم تكن ثمارها قد نضجت بعد. فهل عليَّ الآن أن أتحجج بهذا السبب لقطع علاقتي به على الأقل في الظاهر، أو على الأقل بداخلي؟

بعد بضعة أيام قال السَّيد ك لصديقه:

– لقد قطعت الآن علاقتي بالرجل. تخيل أنه قبل عدة أشهر كان قد طلب من صاحب المنزل آنذاك أن يقطع الشجرة التي تحجب الضوء، إلا أن المالك لم يوافق على ذلك لأنه كان راغبًا في الثمار. والآن وقد آل المنزل إلى صاحبي، قام بالفعل بقطع الشجرة وثمارها ما زالت لم تنضج بعد! لقد قطعت الآن علاقتي به لعدم اتساق تصرفه.

أُبُوَّة الفكرة

تعرض السَّيد ك للانتقاد؛ لأنه كل وقت وحين يرى أن التمني هو أبو الفكرة. فأجاب السَّيد ك:

– ما مِن فكرة إلا وكان أبوها التمني، وإنما يقع الخلاف في تحديد هوية هذا التمني. إن المرء ليس بحاجة إلى الشك في أن أحد الأطفال قد لا يكون له أب لكي يشك أن تحديد الأبوة شيء عسير.

* * *

التَّقاضي

كان السَّيد ك في غالب الأحيان يضرب المثل بأحد التقاليد القضائية في الصين القديمة، حيث يُستدعى القضاة في المحاكمات الكبيرة من الأقاليم البعيدة. بهذه الطريقة يكون من الصعب رشوتهم (بغض النظر عن كونهم فاسدين)؛ لأن القضاة المحليين سيكونون لهم بالمرصاد، فهم أشخاص لديهم خبرة بهذه الأمور ويتحينون الفرص للإيقاع بالغرباء. وأمَّا القضاة الذين يتم استدعاؤهم فلا يكون بمقدورهم معرفة عادات وتقاليد المنطقة من خلال الخبرة اليومية.

إن الظلم في الغالب يكتسب مشروعية حين تصبح ممارسته أمرًا معتادًا. وعلى هذا يكون من اللازم إخبار الغرباء بكل شيء من البداية حتى يميزوا المألوف من غير المألوف.

وفي النهاية فهم ليسوا مضطرين عند التزامهم بفضيلة الحياد أن يضحوا بغيرها من الفضائل الكثيرة، كالعرفان بالجميل وحب الأبناء والتباسط مع المقربين، أو أن يمتلكوا من الشجاعة ما يخلق لهم عداوات في الأوساط التي يقيمون فيها.

سُقراط

بعد قراءته كتابًا عن تاريخ الفلسفة، أعرب السَّيد ك عن ازدرائه لمحاولات الفلاسفة تصوير الأشياء، وكأن معرفتها غير ممكنة من الأساس. فقال:

– لـمَّا ادَّعى السفسطائيون معرفتهم أمورًا كثيرة دون أن يدرسوا شيئًا، أتى سقراط السفسطائي بذلك الادعاء المتعجرف أنه يعرف بأنه لا يعرف أي شيء. كان من المتوقع أن يضيف قائلًا: «لأنني أنا أيضًا لم أدرس شيئًا». (لكي تعرف عليك أن تدرس). لكن ما بدا وقتها هو أنه لم يتفوَّه بأكثر من هذا. ولعلَّ التهليل الكبير الذي اندلع بعد عبارته الأولى واستمر ألفي سنة قد شوَّش على أي عبارات لاحقة.

* * *

المبعوث

تحدثتُ مؤخرًا إلى السَّيد ك عن قضية مبعوث إحدى القوى الأجنبية، وهو السيد (س) الذي قام بتنفيذ العديد من المهام في بلادنا نيابةً عن حكومته، وبعد عودته كما علمنا للأسف تعرض للتنكيل على الرغم من تحقيقه نجاحات عظيمة. فقلتُ:

– لقد كانت تهمته أنه في سبيل تنفيذ مهامه عمل على توطيد أواصر الود بينه وبيننا ونحن أعداؤه. فهل تعتقد أنه كان يمكنه النجاح لولا التصرف على هذا النحو؟

فقال السَّيد ك:

– بالتأكيد لا. لقد كان لزامًا عليه أن يأكل جيدًا كي يتفاوض مع أعدائه، كان لزامًا عليه أن يغازل المجرمين ويسخر من دولته كي يحقق هدفه.

– إذنْ فقد نجح في مهمته؟

سألتُ السَّيد ك، فأجاب وهو شارد الذهن:

– نعم بالطبع، لقد نجح.

وهنا أراد السَّيد ك أن يستأذنني في الانصراف، فأمسكت به مِن كُمِّه وصِحتُ بسخط:

- فعلامَ استُقبل بهذه المهانة عند عودته؟

فقال السَّيد ك بلا مبالاة:

- لا شك أنه كان سيعتاد على الطعام الجيد ويتآلف مع المجرمين وهو ما سيُسقط الثقة بأحكامه. ولهذا كان عليهم أن ينكِّلوا به.

- وهل كان من اللائق في رأيك أن يقوموا بهذا؟

سألته بفزع، فقال السَّيد ك:

- نعم بالطبع. فماذا كان بوسعهم أن يفعلوا غير هذا؟ لقد كان شجاعًا، وبفضل جدارته استطاع القيام بإحدى المهام الانتحارية، ولقد مات بالفعل وهو يقوم بها. فهل عليهم الآن بدلًا مِن دفنه أن يتركوه يتعفن في العراء وهو مطروح تلفُّه الرائحة الكريهة؟

* * *

غريزة التملُّك الطَّبيعية

لـمَّا وصف أحدهم في أحد التجمعات التملُّك بأنه غريزة طبيعية، قص السَّيد ك القصة التالية عن بعض الصيادين المحنكين:

– على الساحل الجنوبي لأيسلندا ثَمَّ صيادون قاموا بتقسيم البحر باستخدام عوامات ثابتة إلى أجزاء مستقلة اقتسموها فيما بينهم. وهم متمسكون تمسكًا شديدًا بمناطق مياههم أكثر من ممتلكاتهم. فهم يحسون بارتباطهم بها، ولا يفرطون فيها حتى ولو لم يبقَ فيها من الأسماك شيء. وهم يحتقرون سكان مدن الساحل الذين يبيعون لهم ما يصطادونه؛ لأن هؤلاء في نظرهم ليسوا سوى فصيلة ضحلة مفصولة عن الطبيعة، في حين يطلقون هم على أنفسهم أهل الماء. وعندما يصيدون أسماكًا أكبر، يحفظونها في أوعية ويجعلون لها أسماء ويتعلقون بها أكثر من ممتلكاتهم.

ويقال إن وضعهم الاقتصادي خلال الفترة الماضية ليس على ما يرام، ومع ذلك فهم يرفضون رفضًا قاطعًا كل محاولات الإصلاح بعد كل ما نالهم من الحكومات المتعاقبة التي لم تتعامل مع أعرافهم التعامل اللائق. إن مثل هؤلاء الصيادين هم خير برهان على قوة غريزة التملُّك التي يخضع لها الإنسان بحُكم طبيعته.

لو كانت القروش بشرًا

– لو كانت القروش بشرًا، أكانوا سيحسنون معاملة الأسماك الصغيرة؟

وجَّهت طفلة صاحبة المنزل هذا السؤال للسَّيد كوينر. فأجاب:

– بالتأكيد. لو كانت القروش بشرًا، فسيشيِّدون للأسماك الصغيرة أقفاصًا كبيرةً في البحر، فيها ما لذ وطاب من صنوف الطعام نباتيًّا كان أو حيوانيًّا. وسيحرصون على أن تكون هذه الأقفاص ملآنة بالمياه النقية على الدوام. وسيتخذون كافة الإجراءات الصحية اللازمة. فلو حدث مثلًا وجُرحت زعنفة إحدى الأسماك الصغيرة، فسيتم تجبيرها في الحال لئلَّا تفقدها القروش قبل أجلها. ولوقاية الأسماك الصغيرة من التعاسة، ستقام من حين لآخر مهرجانات مائية كبيرة، فإن الأسماك السعيدة ألذ طعمًا من الأسماك التعيسة.

بالتأكيد ستكون هناك أيضًا مدارس في الأقفاص الكبيرة. في تلك المدارس ستتعلم الأسماك الصغيرة كيفية السباحة إلى فكوك القروش. فهم سيحتاجون مثلًا إلى معرفة الجغرافيا حتى يتمكنوا من

تحديد أماكن القروش الكبيرة المستلقية في خمول هنا أو هناك. أهم ما في الموضوع بالتأكيد سيكون التربية الأخلاقية للأسماك الصغيرة. فسوف يتعلمون أن أفضل وأروع شيءٍ في العالم هو أن تضحي السمكة الصغيرة بنفسها بكل سرور، وأن عليهم جميعًا أن يصدقوا القروش خصوصًا عندما يقولون إنهم يعملون من أجل غد أفضل. وستتعلم الأسماك الصغيرة أن السبيل الوحيد لضمان هذا الغد هو أن يتعلموا الطاعة.

سيكون على الأسماك الصغيرة أن تحترس من جميع التيارات المنحلة والمادية والانتهازية والماركسية، وأن تقوم فورًا بإبلاغ القروش عن أي فرد من أفرادها تظهر عليه ميول لهذه التيارات.

لو كانت القروش بشرًا، فإنهم بالتأكيد سيشنون الحروب على بعضهم البعض؛ لكي يغزوا الأقفاص الأجنبية والأسماك الأجنبية، وهذه الحروب ستقوم بها أسماكهم الصغيرة. سيعلمون أسماكهم أن هناك اختلافًا رهيبًا بينهم وبين الأسماك التابعة للقروش الأخرى. ومن المعلوم -هكذا سيعلنون- أن الأسماك الصغيرة صامتة، لكنها عند الاختلاف التام في اللغات تكون خرساء، ولذلك يستحيل أن تفهم بعضها البعض. وكل سمكة تقتل في الحرب بضع أسماك أخرى معادية خرساء من لغة أخرى، ستمنح نوطًا صغيرًا من طحالب البحر وتحصل على لقب (بطل).

لو كانت القروش بشرًا، فسيكون بالتأكيد لديهم فنون أيضًا. ستكون هناك لوحات جميلة تُرسم فيها أسنان القروش بألوان بديعة،

وتظهر فيها فكوكهم على هيئة مدن ترفيهية يلهو فيها الواحد كما يحلو له. وستكون عروض المسرح في قاع البحر عن الأسماك الشجاعة وهي تسبح بكل حماسة إلى فكوك القروش. وستكون الموسيقى من العذوبة بحيث إن الأسماك على وقع ألحانها التي تعزفها الفرقة أمامها ستنساب وهي حالمة ومستغرقة في أفكارها الجميلة إلى فكوك القروش.

سيكون هناك أيضًا دين لو كانت القروش بشرًا. ستقول التعاليم بأن الأسماك لن تحيا حياتها الحقيقية إلا في بطون القروش.

وبالمناسبة فإن الأسماك -لو كانت القروش بشرًا- سينتهي تمامًا كونها جميعًا سواسية كما هو الحال الآن. فالبعض سيتقلد مناصب ويعلو على البعض الآخر، بل سيكون مباحًا للأكبر أن يلتهم الأصغر. وهذا سيحظى تمامًا بقبول القروش، فإنهم حينها سيحصلون على قطع أكبر يأكلونها. وهؤلاء الأسماك الأكبر الذين يتقلدون المناصب سيفرضون النظام على الأسماك الأصغر، فيكون منهم المعلمون والضباط والمهندسون المختصون بإنشاء الأقفاص، وغير هؤلاء.

باختصار، لو كانت القروش بشرًا، لبدأ ظهور حضارة في البحر.

* * *

انتظارٌ

قضى السَّيد ك في انتظار شيءٍ ما يومًا كاملًا، ثم أسبوعًا كاملًا، ثم شهرًا كاملًا. وفي النهاية قال:

– كان يمكنني بكل سهولة أن أنتظر شهرًا، أمَّا ذاك اليوم وهذا الأسبوع فلا.

* * *

الموظف الذي لا غنى عنه

سمع السَّيد ك عن موظف قضى في منصبه فترة طويلة، فوجد مَن يمدحه بأنه لا غنى عنه وأنه موظف مثالي. فتساءل السَّيد كوينر بانزعاج:

- لماذا هو لا غنى عنه؟

- لأنَّ القِسم من غيره لا يعمل.

أجاب مادحوه. فقال السَّيد كوينر:

- كيف يكون موظفًا مثاليًّا والقِسم من غيره لا يعمل؟ لقد كان لديه من الوقت ما يكفي لتنظيم القِسم الذي يعمل فيه حتى يمكن الاستغناء عنه. فبأي شيء كان منشغلًا؟ أنا أقول لكم: بالابتزاز.

* * *

إساءةٌ مُغتفَرةٌ

اتُّهِم أحد زملاء السَّيد ك بأنه يقف منه موقفًا عدائيًّا.

– هذا صحيحٌ، ولكنه فقط من وراء ظهري[٨].

هكذا دافع عنه السَّيد ك.

* * *

(٨) قصد القائلون المعنى المجازي للوقوف، وقصد كوينر المعنى الحرفي.

السَّيد ك يقود سيارةً

تعلم السَّيد ك القيادة، لكنه في أول الأمر لم يكن يقود بصورةٍ متقنةٍ. فقال ملتمسًا لنفسه العذر:

– إنني لم أتعلم حتى الآن إلا قيادة سيارة واحدة، ولكن على المرء أن يكون قادرًا على قيادة سيارتين، أعني السيارة التي أمام سيارته أيضًا. فعندما يضع المرء في حسبانه الظروف التي تقود فيها السيارة التي أمامه ويستطيع الحكم على العقبات التي تواجهها، حينها فقط يعرف المرء كيف يتعامل مع السيارة.

* * *

السَّيد ك والشِّعر

بعد قراءته أحد الدواوين الشِّعرية، قال السَّيد ك:

– لقد كان محظورًا على المرشحين للوظائف العامة في روما حين يَـمْـثُلون في الساحة أن يرتدوا ملابس ذات جيوب حتى لا يمكنهم أخذ الرشاوي. فكذلك ينبغي على الشعراء ألَّا يرتدوا ملابس ذات أكمام حتى لا يمكنهم نقل الأبيات مِن عليها[٩].

* * *

(٩) يتلاعب بريخت هنا بالصيغة المجازية التي يُعبَّر بها عن الارتجال، وهي نقل المكتوب مِن على الكُمِّ. وكانت هذه عادة قديمة للخطباء عند عدم تحضيرهم ما يقولونه، فيكتبون قبيل خطبتهم ملحوظات سريعة على أكمامهم في الجانب المواجه لهم، فإذا خطبوا أداروا أكمامهم حتى يقرأوا ما كتبوه عليها.

الأبراج

طلب السَّيد ك ممَّن يهتمون بطوالع أبراجهم أن يذكروا لمنجِّميهم أحد التواريخ في الماضي، وليكن يومًا وقع فيه حدث مميز حسنًا كان أو سيئًا، ولينظروا إلى أي مدى ستكشف الأبراج للمنجمين ذلك السر. لكن نصيحة السَّيد ك لم يكن لها صدى يُذكر، ذلك أن هؤلاء المؤمنين قد أخبرهم المنجمون بالفعل بأشياء من وحي النجوم حسنة أو سيئة ولم تتطابق مع ما وقع للسائلين، فما كان من المنجمين إلَّا أن احتدُّوا قائلين إن النجوم لا تنبئنا إلَّا بوقائع محددة، ولا بد أنها كانت واقعة في الوقت المذكور. فانتابت السَّيد ك دهشة بالغة، وطرح سؤالاً آخر فقال:

– لم أجد ما يفسر لي سبب كون البشر وحدهم دونًا عن سائر المخلوقات هم مَن يقعون تحت تأثير الأجرام السماوية! فهل هذه القوى قد أسقطت الحيوانات من حساباتها؟ ماذا قد يحدث إذنْ عندما يكون أحدهم من برج الدلو ومعه برغوث من برج الثور وغرق في النهر؟ قد يغرق معه البرغوث مع أن طالعه قد يكون حسنًا. هذه الأشياء لا تروقني.

إساءة فهمٍ

حضر السَّيد ك أحد الاجتماعات، وعقب ذلك قص القصة التالية:

– في المدينة الكبيرة (س) هناك ما أُطلق عليه نادى النحنحة، وله عادة مميزة وهي أنه بعد تناول عشاء فاخر سنويًّا تتم النحنحة عدة مرات. هذا النادي رُوَّادُه وجدوا من المستحيل أن يحتفظوا بآرائهم لأنفسهم إلى الأبد، لكن التجارب علمتهم أن أقوالهم دائمًا ما يُساء فهمها.

ثم هز السَّيد ك رأسه، وقال:

– لقد سمعتُ مع ذلك أنه حتى هذه النحنحة يسيء البعض فهمها؛ لأنهم يفترضون أنها لا تعني شيئًا على الإطلاق.

* * *

سائقان

سُئل السَّيد ك عن أسلوب عمل اثنين من المسرحيين، فعقد بينهما المقارنة التالية:

– أعرف سائقًا لديه إلمام تام بقواعد المرور ويعرف كيف يستفيد منها. فهو بارع في الانطلاق، بارع في الالتزام بالسرعة المحددة، مع قدرته على الحفاظ على سلامة المحرِّك، وبهذا يشق طريقه بكل حرص وبكل جرأة بين المركبات الأخرى.

وأعرف سائقًا آخر يسير على نحو مختلف. فهو مهتم بالنظام المروري أكثر من اهتمامه بطريقه هو، فهو يعتبر نفسه جزءًا مِن كُل. وهو لا يتمتع بحقوقه ولا يسعى إلى تمييز نفسه عن الآخرين. وهو حين يقود يكون ذهنه مشغولًا بالسيارة التي أمامه والسيارة التي خلفه، ولا غضاضة عنده إطلاقًا في أن تتجاوزه كل المركبات بل والمشاة أيضًا.

* * *

روح العدالة

كان لدى مضيف السَّيد ك كلبٌ، فأقبل ذات يوم وهو يزحف وقد بدت عليه أمارات الشعور بالذنب. فنصح السَّيد ك مضيفه قائلًا:

– لقد ارتكبَ أمرًا ما، فكلِّمه بغضب وحِدَّةٍ في الحال.

– لكنني لا أعرف ما الذي ارتكبه.

قالها المضيف معترضًا.

فأصرَّ السَّيد ك قائلًا:

– الكلب لا يمكنه إدراك ذلك. فهيَّا أظهِر له استنكارك وامتعاضك، وإلا عذَّبَته روحُ العدالة التي بداخله.

* * *

عن الود

للود مكانته الرفيعة عند السَّيد ك، فقد قال:

- أن تـثبِّط غيرك ولو بأسلوبٍ ودودٍ، وأن يكون حُكمك على غيرك ليس مبنيًّا على قدراته، وألَّا تكون ودودًا إلا مع مَن هو ودود معك، وأن تتعامل مع غيرك بفتور عند انفعاله، وأن تتعامل معه بانفعال عند فتوره، فإن هذا ليس مِن الود في شيء.

* * *

السَّيد ك ورسمة ابنة أخيه

نظر السَّيد ك في الرسمة التي قامت بها ابنة أخيه الصغيرة. كانت عبارة عن دجاجة تطير فوق مزرعة.

- أخبريني لماذا دجاجتُكِ بثلاث أرجل؟

سألها السَّيد ك، فأجابته الفنانة الصغيرة:

- الدجاج لا يستطيع الطيران طبعًا، ولذلك احتجت إلى رجل ثالثة لتعطيها دفعة إلى الأعلى.

فقال السَّيد ك:

- أنا سعيد لأنني طرحت هذا السؤال.

* * *

عن الفساد

في أحد التجمعات التي كان يحضرها السَّيد كوينر تطرق في حديثه إلى المعرفة النقية، وذكر أنه لا يمكن الحصول عليها إلا بالتغلب على الفساد. فسأله بعضهم سؤالًا عرضيًّا عن مصداق الفساد.

- المال.

قالها السَّيد كوينر على الفور. وعندئذ تعالت صيحات الدهشة في التجمع وتمايلت الرؤوس في سخط، فيبدو أنهم كانوا يتوقعون إجابة أفضل من هذه. لقد كشف هذا عن وجود رغبة في أن يوصم بالفساد مَن يريدون أن تتم رشوتهم بشيء فيه رقي معنوي، وكون هذا المرتشي لديه نقص معنوي هو أمر لا أحد يريد أن يلومه عليه. فكثيرون كما يقال تتم رشوتهم بالأوسمة، أي ليس بالمال.

إننا نجد مَن تَثبت عليهم تهمة الحصول على المال بطريقة غير مشروعة أن هذه الأموال تُسترد منهم، في حين نجد هناك رغبة تجاه مَن يحصلون على الأوسمة بطريقة غير مشروعة أن يحتفظوا بها.

على هذا؛ فإن كثيرًا من المتهمين بالاستغلال يحاولون إقناعنا

بأنهم إنما يأخذون المال لكي يستطيعوا أن يحكموا، ولا يسمحون بأن يقال إنهم يحكمون لكي يأخذوا المال. ولكن عندما يكون أخذ المال يعني الحكم، فليس هناك ما يبرر سرقة المال.

* * *

الخطأ والتقدُّم

مَن لم يكن تفكيره إلَّا في نفسه، لن يعتقد بأنه على خطأ، وبهذا سيبقى على حاله ولا يتقدم. من أجل ذلك على المرء أن يفكر فيمَن يواصلون العمل معه، فهذا هو السبيل الوحيد لمنع حدوث الأشياء.

* * *

معرفة الطبيعة البشرية

لم يكن لدى السَّيد ك إلا معرفة يسيرة بالطبيعة البشرية، وكان يقول:

– ليس ثمة ضرورة لمعرفة الطبيعة البشرية إلا عند وجود الاستغلال. إن التفكير يعني التغيير، فإذا فكرتُ في إنسان عملتُ على تغييره. فما أراه أن الشخص بالنسبة لي ليس ما هو عليه، بل يكون هكذا فقط عندما أقوم بالتفكير فيه.

* * *

السَّيد كوينر والطوفان

كان السَّيد كوينر يسير في أحد الوديان حينما لاحظ فجأةً أن قدميه تسيران في الماء. ثم أدرك أنَّ الوادي كان في حقيقة الأمر خليجًا، وأنَّ ثَمَّ طوفانًا على وشك المجيء. فتوقف مِن فوره ليبحث حوله عن قارب، وبقدر أمله في العثور على قارب بقدر ما بقي واقفًا.

ولكن لـمَّا لَمْ يَلُحْ أي قارب في الأفق، تخلَّى عن هذا الأمل، وأمُل ألَّا ترتفع المياه أكثر مِن هذا. لكنه لـمَّا بلغت المياه ذقنه، تخلَّى عن هذا الأمل وشرع في السباحة. لقد أدرك أنه هو نفسه كان قاربًا.

* * *

السَّيد كوينر والممثلة

كان للسَّيد كوينر صديقةٌ ممثلةٌ حصلت ذات يوم على هدايا من أحد الأثرياء. وعقب ذلك أصبحت آراؤها عن الأثرياء مختلفة تمامًا عن آراء السَّيد كوينر. كان يرى السَّيد كوينر أن الأثرياء سيئون، لكن صديقته كانت ترى أنهم ليسوا جميعًا سيئين. لماذا كانت ترى أن الأثرياء ليسوا جميعًا سيئين؟ لم يكن سبب ذلك أنها حصلت على هدايا منهم، بل لأنها قبلت الهدايا منهم؛ فهي تعتقد أنها ليست من النوع الذي يقبل هدايا من السيئين. أما السَّيد كوينر فبعد أن فكر في هذا طويلًا، لم يعتقد هو ما اعتقدته هي عن نفسها.

- خذي أموالهم!

قالها السَّيد كوينر -مستغلًا ما لا بد منه-، وواصل:

- هم لم يدفعوا من جيوبهم ثمن هذه الهدايا وإنما سرقوه. فاحملي عن كاهل هؤلاء القوم شيئًا مما نهبوه حتى يتسنى لكِ أن تكوني ممثلةً جيدةً!

- ألا يمكنني أن أكون ممثلةً جيدةً إلا بالمال؟

تساءلت صديقته.

- كلا.

قالها السَّيد كوينر بحدة، وجعل يكررها.

* * *

السَّيد كوينر والصَّحف

انطلق السَّيد كوينر إلى السَّيد مودله المعروف بمناهضته للصحف.

- إنني من أشد المعارضين للصحف.

قالها السَّيد مودله. فقال السَّيد كوينر:

- أمَّا أنا فلا أريد أي صحف.

- إنني أشد معارضة من هذا للصحف: فأنا أريد صحفًا مختلفة.

فقال السَّيد كوينر للسَّيد مودله:

- اكتب لي في ورقة ما تطالب به لكي تصدر الصحف، فإن الصحف سوف تصدر. لكن طالِبْ بالحد الأدنى. فأنا أفضِّل -على سبيل المثال- لو أنك جعلتها تصدر على يد رجال فاسدين لا شرفاء، لأنني سيسهل عليَّ حينئذ رشوتهم لتحسين الصحف. أمَّا إذا طالبتَ بوجود رجال شرفاء، فسيتوجب علينا حينئذ البدء في البحث عنهم، فإن لم نجدهم فسيكون علينا إيجاد بعضهم.

واكتب في الورقة أيضًا ما ينبغي أن تكون عليه الصحف، فإن وجدنا

مقدار نملة مما يوافق ما في الورقة فحينها سنبدأ على الفور. ستكون النملة ذات نفع عظيم لنا في تحسين الصحف أكثر من الصخب العام الذي يرى أن الصحف لا يمكن تحسينها. ذلك أن الجبل من الممكن أن تنقله نملة واحدة، ويستحيل أن يقوم الصخبُ بهذا.

إذا كانت الصحف وسيلة للفوضى، فهي كذلك وسيلة لتحقيق النظام. إن أناسًا من نوعية السَّيد مودله هم بالضبط مَن يعملون بدافع سخطهم على إظهار قيمة الصحف، فهو يعتقد أنه مهموم بانحطاط صحف اليوم، لكنه في حقيقة الأمر مهموم بقيمتها غدًا.

لقد كان السَّيد مودله يُعلي في تفكيره من شأن الإنسان، ولم يكن يعتقد أن الصحف يمكن أن تتحسن. بينما السَّيد كوينر لم يكن يُعلي في تفكيره من شأن الإنسان، وكان يعتقد أن الصحف يمكن أن تتحسن.

قال السَّيد كوينر:

- إن كل شيء يمكن أن يتحسن، إلا الإنسان.

* * *

عن الخيانة

هل ينبغي على المرء الوفاء بالعهد؟ هل ينبغي على المرء أن يقطع على نفسه عهدًا؟ عند الوعد بشيء ليست ثمة ترتيبات، ولذلك على المرء أن يضع هذه الترتيبات. إن الإنسان لا يستطيع أن يَعِدَ بشيء. فالذراع بِمَ تَعِدُ الرأس؟ بأنها ستبقى ذراعًا ولا تتحول إلى قدم؛ لأن كل سبع سنوات هناك ذراع مختلفة.

إذا خان شخصٌ شخصًا، فهل يستوي الذي خان والذي وعد؟ ما دام أن الشخص الموعود يجد نفسه باستمرار في ظروف متغيرة، وبالتالي هو نفسه يتغير باستمرار بما يتوافق مع تلك الظروف فيصبح شخصًا آخر، فكيف يتم الوفاء بالوعد الذي أُعطِي له وهو وعدٌ أُعطِي لشخص آخر؟

إن المفكر يخون، فالمفكر لا يَعِدُ إلَّا بأن يبقى مفكرًا.

* * *

تعليقٌ

قال السَّيد كوينر عن أحدهم:

– إنه رجل دولة عظيم، فهو ليس ممَّن ينخدعون بما هم عليه ولا ما يمكنهم أن يصيروا إليه. ولأن الناس اليوم يتم استغلالهم لإلحاق الأذى بغيرهم وهم لا يرغبون في ذلك، فلا ينبغي للمرء أن ينخدع بأن الناس يرغبون في أن يتم استغلالهم. إن مَن يستغلون هؤلاء الناس لإلحاق الأذى بهم يكون إثمهم أشد عندما يسيئون استخدام إحدى هذه الرغبات ذات الأخلاقيات الرفيعة.

* * *

عن تحقيق المصالح

إن السبب الأساسي في ضرورة تحقيق المصالح هو أن عددًا كبيرًا من الأفكار لا يمكن التفكير فيها إذا كانت تضرُّ بمصالح المفكرين أنفسهم. فإذا تعذر تحقيق المصالح، فمن الضروري الإعلان عنها والتأكيد على تنوعها؛ لأن هذا هو السَّبيل الوحيد الذي يمكن من خلاله للمفكر أن يفكر في أفكار تخدم مصالح الآخرين؛ لأنه من الأسهل التفكير في مصالح الآخرين عن عدم التفكير في أي مصالح على الإطلاق.

* * *

تضحيتان

لـمَّا حان وقت الاضطرابات الدموية التي تنبأ بها المفكر، وقال إنها ستطاله وتطمسه وتخمده فترة طويلة، أحضروه من النُّزُل العمومي. فأخبرهم بما يرغب في أخذه معه تحسبًا لحالة العوز الشديد الذي خشي بينه وبين نفسه أن يكون شديدًا جدًّا. فلـمَّا جمعوا ما أراد ووضعوه أمامه، لم يكن أكثر مما يمكن أخذه ولا أكثر مما يمكن تركه.

ثم تنهد المفكر وطلب منهم أن يضعوا له هذه الأشياء في كيس، وكانت في الأساس عبارة عن كتب وأوراق، ولم يكن فيها من المعرفة أزيد مما يمكن للمرء أن ينساه. فأخذ هذا الكيس معه، إضافة إلى غطاء اختاره لسهولة تنظيفه. وترك سائر الأشياء الأخرى التي كان يحيط نفسه بها، وتخلى عنها بعبارة ندم وخمس عبارات قبول. وكانت هذه هي التضحية السهلة.

لكن المعروف عنه قيامه بتضحية أخرى أصعب من هذه. فعندما كان ينتقل من مخبأ لآخر، عاد إلى أحد البيوت الكبيرة وأمضى فيه بعض الوقت. هناك وقبل أن تطاله الاضطرابات الدموية بوقت

يسير مثلما تنبأ، تخلى عن غطائه واستعاض عنه بآخر أجود بل بعدة أغطية، وتخلى كذلك عن الكيس بعبارة ندم وخمس عبارات قبول، كما نسي أيضًا حكمته حتى يكتمل الطمس. وكانت هذه هي التضحية الأصعب.

* * *

علامات الحياة الجيدة

أبصر السَّيد كوينر في أحد الأماكن كرسيًّا عتيقًا جميل الصنعة، فاشتراه وقال:

– ليت تفكيري يهديني إلى أن أعرف على أي أساس تسير الحياة، فكرسي كهذا كيف لم يلفت الأنظار إليه ولم يجد أحدٌ فيه ما يستحق التمتع به زهيدًا كان أو ثمينًا!

ثم قال السَّيد كوينر:

– لقد تساءل بعض الفلاسفة عمَّا كان يمكن للحياة أن تكون عليه، وهي التي دائمًا ما تتحدد وجهتها في المواقف الحاسمة تبعًا لآخر الأعمال الفنية نجاحًا! لو كنا بالفعل نملك حياة جيدة بين أيدينا، لما كنا بحاجة إلى دوافع عظيمة ولا نصائح حكيمة، ولانتهت معاناة الاختيار بالكامل.

قالها السَّيد كوينر باحترام بالغ لهذه المسألة.

* * *

عن الحقيقة

جاء التلميذ العميق إلى السَّيد كوينر المفكر، وقال:

- أريد أن أعرف الحقيقة.

فقال السَّيد كوينر:

- أي حقيقة؟ إن الحقيقة لا تخفى على أحدٍ. أتريد أن تعرف الحقيقة عن تجارة السمك؟ أو عن نظام الضرائب؟ إن كنتَ لأنهم أخبروك بالحقيقة عن تجارة السمك لم تعُد تدفع سعرًا عاليًا في أسماكهم، فلن تعرف الحقيقة أبدًا.

* * *

الحُبُّ لِـمَن؟

قيل إن الممثلة (ز) انتحرت من أجل حُبٍّ تعيس. فقال السَّيد كوينر:

– لقد انتحرت من أجل حبها لذاتها. فهي قطعًا لا يمكن أن تكون أحبت (س)، وإلَّا لكادت أن تفعل هذا به هو. إن الحب هو الرغبة في العطاء لا الأخذ. الحب هو الفن الذي تُخلق فيه الأشياء بمهارة الطرفين. من هنا يكون احتياج كل طرف إلى تقدير الآخر ومودَّته، وهو ما يمكن الحصول عليه على الدوام. وأمَّا الرغبة العارمة في الحصول على الحب فلا يكاد يكون لها دخل بالحب الحقيقي. إن الحب الذاتي ينطوي على شيء من الانتحار.

* * *

مَن يعرف مَن؟

سأل السَّيد كوينر امرأتين عن زوجيهما.

فأجابته إحداهما بما يلي:

– لقد عشتُ معه عشرين عامًا. ننام في نفس الغرفة وعلى نفس الفراش، ونتناول وجباتنا معًا. وهو يخبرني بكل ما يخص أشغاله. وقد تعرفت على والديه، واختلطت بجميع أصدقائه. وأعرف جميع أمراضه التي يعرف هو بعضها وكثير منها لا يعرفه. مِن بين جميع مَن يعرفونه أنا وحدي مَن يعرفه جيدًا.

– أنتِ تعرفينه إذنْ؟

سألها السَّيد كوينر، فقالت:

– أنا أعرفه.

ثم سأل السَّيد كوينر امرأة أخرى عن زوجها، فأجابت بما يلي:

– هو يمكث في الغالب فترة طويلة دون أن يأتي، ولم أكن أعرف أبدًا إن كان سيعود أو لا. لقد مرَّ عام على آخر مرة أتى فيها، ولا أعرف إن كان سيعود أم لا. لا أعرف إن كان يأتي قادمًا من بيوت راقية أم من

حارات الميناء. أنا مقيمة في بيت راقٍ، فمَن يدري إن كان قد يأتي إليَّ لو كنت في بيت متواضع؟

هو لا يخبرني بشيءٍ، بل لا يتحدث معي إلا عمَّا يخصني أنا، فهو يعرف أدق شؤوني، وما يقوله أنا أعرفه، أليس كذلك؟ حين يأتي يكون في بعض الأحيان جائعًا، وفي أحيان أخرى يكون شبعان. لكنه دائمًا لا يأكل وهو جائع، ولا يرفض الطعام وهو شبعان. أتاني مرة وهو جريح، فضمدتُ له جرحه. ومرة جيء به محمولًا. ومرة كان يطارد الناس خارج بيتي.

عندما أدعوه «السَّيد الغامض» يضحك، ويقول: «مضى الظلام وجاء النور»[١٠]. لكنه في بعض الأحيان يغتم عندما أخاطبه بهذا. لا أعرف إن كنت أحبه أم لا. إنني...

- لا تقولي شيئًا آخر.

قاطعها السَّيد كوينر، وأردف:

- أنا أرى أنك تعرفينه. ليس هناك إنسان يعرف إنسانًا خيرًا من معرفتك بهذا الرجل.

* * *

(١٠) استخدمت المرأة المعنى المجازي للظلام وهو الغموض، واستخدم الرجل المعنى الحقيقي.

الأسلوب الأفضل

الشيء الوحيد الذي قاله السَّيد ك عن الأسلوب هو هذا:

– ينبغي أن يكون قابلًا للاقتباس، فالاقتباس شيء غير شخصي. مَن هم أفضل الأبناء؟ هم مَن يجعلونك لا تتذكر أباهم.

* * *

السَّيد كوينر والطبيب

قال الطبيب (س) للسَّيد كوينر وهو يحس بالامتهان:

- لقد تحدثتُ عن أشياء كثيرة ليست معروفة، ولم أكتفِ بالحديث، بل قمتُ أيضًا بالعلاج.

- هل أصبح معروفًا الآن ما قمتَ بعلاجه؟

سأله السَّيد كوينر، فأجاب (س):

- لا.

فقال السَّيد كوينر على الفور:

- خيرٌ للمجهول أن يبقى مجهولًا عن أن تتزايد الأسرار.

* * *

التَّشابه خيرٌ من الاختلاف

ليس اختلاف الناس شيئًا حسنًا، بل تشابههم. فالمتشابهون ينسجمون، وأمَّا المختلفون فيتنافرون.

* * *

المفكِّر والتِّلميذ المدَّعي

جاء أحد التَّلاميذ المدَّعين إلى السَّيد كوينر المفكر، وقال له:

- هناك عِجْلٌ في أمريكا بخمسة رؤوس، فما قولك في هذا؟

فقال السَّيد كوينر:

- ليس عندي ما أقوله.

ففرح التِّلميذ المدَّعي وقال:

- لو كنتَ على قدرٍ مِن الحكمة، لاستطعتَ أن تقول شيئًا في هذا.

إن الأحمق يتوقع الكثير، وأما المفكر فيقول القليل.

* * *

عن الهيئة

الحكمة ثمرة من ثمار الهيئة. ولأنها ليست هي الغرض من الهيئة، فلا يمكن للحكمة أن تدفع أحدًا إلى محاكاة الهيئة. فأنت لن تأكل بنفس الطريقة التي آكل أنا بها، لكنك لو أكلتَ بنفس طريقتي فهذا سيفيدك. ما أقوله هو أن الهيئة فعلًا قد تكون محفزة للأفعال، لكن عليك أن تقوم بتنظيم المتطلبات حتى يصبح هذا بالفعل هو الحال.

إنني ألاحظ -هكذا يقول المفكر- أنَّ لي نفس هيئة أبي، لكنني مع ذلك لا أفعل ما يفعله أبي. فلماذا أقوم بأفعالٍ أخرى؟ لأن ثمة متطلبات أخرى. على أنني أرى أن الهيئة تدوم أكثر من السلوك، فهي تقاوم المتطلبات. بعض الناس لا يمكنه القيام إلا بعمل واحد حتى لا يريق ماء وجهه. فإذا لم يستطع الالتزام بالمتطلبات، لا يلبث أن يتهاوى. أمَّا مَن له هيئة فيستطيع فعل كثير من الأشياء دون أن يريق ماء وجهه.

* * *

ما لا يهواه السَّيد كوينر

السَّيد كوينر لا يهوى إلقاء الوداع، ولا يهوى عبارات الترحيب، ولا يهوى المناسبات السنوية، ولا يهوى الحفلات، ولا يهوى إنهاء المهام، ولا يهوى فتح صفحة جديدة في الحياة، ولا يهوى التسويات، ولا يهوى الانتقام، ولا يهوى الأحكام النهائية.

* * *

في مجابهة العواصف

– لـمَّا دهمت المفكر عاصفة شديدة، كان يجلس في سيارة كبيرة ويشغل حيزًا كبيرًا. فكان أول شيء فعله هو الخروج من سيارته، وثاني شيء أن خلع معطفه، وثالث شيء الانبطاح أرضًا. وبهذا جابَهَ العاصفة بحجمه الضئيل.

ما إن قرأ السيد كوينر ذلك، حتى قال:

– من المفيد أن يتبنى المرء آراء الآخرين عنه، وإلا فلن يفهم نفسه.

* * *

مرض السَّيد كوينر

- لماذا أنت مريض؟

سأل الناس السَّيد كوينر، فأجاب:

- لأن البلد ليس على ما يرام. هذا هو السبب في كون نمط حياتي ليس على ما يرام، وصارت كليتاي تعانيان من الخلل هما وعضلاتي وقلبي. إنني عندما أدخل المدن، يكون كل شيء إمَّا أسرع منِّي وإمَّا أبطأ مِنِّي. أتحدث لِمَن يتحدثون، وأنصت عندما ينصتون. كل ما يُنتفع به في زماني هذا نابع من الغموض، أما الوضوح فلا نفع فيه إلا عند مَن يملكه.

* * *

النَّزاهة

عند سؤاله عن كيفية تربية المرء على النزاهة، أجاب السَّيد كوينر:

- بإشباعه.

وعند سؤاله عن كيفية جعل المرء يتقدم باقتراحات جيدة، أجاب السَّيد كوينر:

- بضمان مشاركته في ثمار اقتراحاته، وأنه لا يمكنه الحصول على هذه الفوائد بمفرده.

* * *

سؤالٌ عن الخطيئة

اشتكت إحدى التلميذات من طبيعة السَّيد كوينر الغادرة. فدافع عن نفسه وقال:

– قد يكون جمالك من النوع الذي سرعان ما تلاحقه الأعين، وسرعان ما تنصرف عنه. وفي جميع الأحوال، مَن غيرك وغيري مسؤول عن هذا؟

ثم ذكَّرها بالأمور اللازمة لقيادة السيارة.

* * *

دور المشاعر

كان السَّيد كوينر في الريف مع ابنه الصغير. وذات صباح وجده في زاوية الحديقة يبكي. فسأله عن سبب حزنه، فعرفه وانصرف. ولـمَّا عاد إذا بالطفل لا يزال يبكي، فدعاه وقال له:

– ما جدوى البكاء طالما أن هذه الرياح الشديدة لن تجعل أحدًا يسمعك على الإطلاق!

فتوقف الطفل وقد أدرك المغزى، وعاد إلى كومة الرمل التي كان يلعب بها دون إظهار أي مشاعر أخرى.

* * *

عن كوينر الصَّغير

حكى أحدهم قصة عن كوينر الصغير، وأنه سمعه ذات صباح يقول لفتاة كان متيمًا بحبها:

- ليلة أمس حلمتُ بكِ، وكنتِ حساسة جدًّا.

* * *

ترفٌ

كان المفكر في أغلب الأوقات يعاتب صديقته على ترفها. وذات مرة اكتشف أن لديها أربعة أحذية.

– لديَّ أيضًا أربعة أنواع مختلفة من الأقدام.

قالت مبررةً صنيعها. فضحك المفكر وسألها:

– فماذا تفعلين إذنْ عند تمزق أحد الأحذية؟

هنا أدركَتْ أن الصورة لم تتضح له بعد، فقالت:

– لقد أخطأت، بل لديَّ خمسة أنواع مختلفة من الأقدام.

حينئذٍ اتضحت الصورة أخيرًا للمفكر.

* * *

عَبْدٌ أو سيِّدٌ

قال السَّيد كوينر المفكر:

– ليعلم مَن لم ينشغل بنفسه أن غيره سينشغل به. فإمَّا أن يكون عبدًا أو يكون سيدًا. فالعبد والسَّيد ليس من السهل التمييز بينهما، إلا بالنسبة للعبيد والسَّادة أنفسهم.

– إذنْ فمَن انشغل بنفسه فهو الذي على صواب؟

– مَن انشغل بنفسه لم ينشغل بشيء، فليس هو عبدًا لشيء ولا سيدًا لشيء.

– إذنْ فمَن لم ينشغل بنفسه فهو الذي على صواب؟

– نعم، حين لا يعطي غيره ذريعة للانشغال به. وهذا يعني عدم انشغاله بشيء وعدم عبوديته لشيء أي نفسه، أو عدم سيادته على شيء أي نفسه.

قالها السَّيد كوينر المفكر وهو يضحك.

* * *

هيئةٌ أرستقراطيةٌ

قال السَّيد كوينر:

- لقد اتخذتُ لنفسي أيضًا ذات يوم هيئة أرستقراطية (كما تعلمون: أن تكون منتصبًا ممشوقًا شامخًا، ورأسك مائلة إلى الوراء). كنتُ وقتها واقفًا وسط المياه وهي ترتفع، فلـمَّا بلغت ذقني، اتخذتُ هذه الهيئة.

* * *

عن تطوُّر المدن الكبيرة

كثير من الناس يعتقدون أن المصانع أو المدن الكبيرة في المستقبل قد يكون لها أبعاد هائلة بالغة الضخامة تستعصي على القياس. البعض يتخوف من هذا، والبعض يتمناه. وليس ثمة وسائل مضمونة للتحقق من هذا الأمر.

من هنا رأى السَّيد كوينر ألَّا ينشغل المرء بهذا التطور، على الأقل في حال حياته، فلا يتصرف وكأن المدن أو المصانع ستخرج عن السيطرة. وقال:

– كل شيء يبدو في هذا التطور له اعتباره مع مرور الزمن. مَن لديه الجرأة على كبح جماح الفيل الذي يفوق حجمه حجم العجل عدة مرات؟ ومع ذلك فأقصى ما سيبلغه حجم ذلك الأمر أن يكون أكبر من العجل لكن ليس أكبر من الفيل.

* * *

عن الأنظمة

قال السَّيد ك:

- كثير من الأخطاء تقع؛ لأن مَن يتكلمون لا يقاطعهم أحدٌ إلَّا في النادر، وهو ما يؤدي بكل سهولة إلى خَلْقِ حالةٍ كُليَّةٍ خادعةٍ، فهي لكونها كُليَّةً لا يستطيع أحد أن ينكرها، كما أنها لا تثبت صحتها إلا بأجزائها الفردية، مع أن هذه الأجزاء الفردية نفسها لا تثبت صحتها إلا بمجموعها الكلي.

إن كثيرًا من المشاكل تنشأ هكذا بل، وهكذا تستمر؛ لأنه بعد القضاء على الممارسات الضارة تعمل الحاجة -التي لم تزل قائمةً- على توفير البديل الدائم. والمتعة نفسها هي مَن تتولد منها الحاجة.

ويمكن التعبير عن ذلك بهذه الصورة: بالنسبة لِمَن يشعرون بالحاجة إلى الجلوس طويلًا لضعفهم، فلتُنصب لهم مقاعد من الجليد في الشتاء، حتى إذا جاء الربيع وبلغ الصغار أشُدَّهم ومات الكبار، تلاشت المقاعد هي أيضًا دون تدخل من أحد.

الهندسة المعمارية

في الوقت الذي سادت فيه الأفكار الفنية ذات النزعة البرجوازية الصغيرة لدى السلطات الحكومية، سأل أحد المهندسين المعماريين السَّيد كوينر إن كان عليه إبرام عقد إنشاءات كبير أم لا. ثم قال بنبرة يائسة:

– إن الأخطاء والعيوب الموجودة في أعمالنا ستظل قائمة مئات السنين!

فأجاب السَّيد كوينر:

– ما عاد الأمر كذلك. ففي ظل التطور الهائل في وسائل الهدم، لم تعُد مبانيك سوى تجارب وليست عروضًا ملزمةً، مجرد وسائل إيضاح بصرية خاضعة لنقاشات الجماهير. وأما بالنسبة للزخارف الصغيرة البشعة والأعمدة الصغيرة وغير ذلك، فاجعلها من الكماليات الزائدة حتى يسهل على الـمِعْوَل الإبقاء على الخطوط الصريحة الكبيرة عندما يأتي عليها. ضع ثقتك في رجالنا، وكن مطمئنًّا للتطور السريع!

الجهاز والحزب

حينما كان يتم تجهيز الحزب للانطلاق، عقب وفاة ستالين، إلى مرحلة جديدة من العمل، كان الكثيرون يصرخون:

- ليس لدينا حزب، فقط جهاز. فليسقط الجهاز!

فقال السَّيد ك:

- إن الجهاز ليس إلا الهيكل العظمي للإدارة وممارسة السلطة. أنت نفسك مكثت مدة طويلة لست سوى هيكل عظمي. فلا تهدم كل شيء الآن. عندما تتمكن من إضافة العضلات والأعصاب والأعضاء، حينها لن يعود الهيكل العظمي ظاهرًا.

* * *

الغضب والنَّصيحة

قال السَّيد كوينر:

– من الصعب على المرء إسداء النصيحة لِـمَن هو غاضب منهم. ومع ذلك فلا مهرب منها؛ لأنهم في أمس الحاجة إليها.

* * *

السَّيد كوينر والتَّمارين الرِّياضية

حكى أحد الأصدقاء للسَّيد كوينر أن صحته قد تحسنت منذ أن قطف في الخريف جميع الكرز من فوق إحدى الأشجار العالية في الحديقة. لقد قام بالزحف إلى أطراف الأغصان، ومؤكدٌ أن الحركات العديدة التي قام بها مِن الـمَدِّ والثَّنْـيِ كان لها أثر جيد عليه.

- هل أكلتَ الكرز؟

سأله السَّيد كوينر. فلـمَّا رد عليه بالإيجاب، قال:

- تلك هي التمارين التي قد أسمح لنفسي بها.

* * *

قصصٌ قصيرةٌ مختارةٌ

تمهيد

لم تقتصر أعمال بريخت الأدبية على المسرح والشِّعر، فقد كتب أيضًا عددًا غير قليل من القصص القصيرة[١١]. ولم يكن هذا الجانب مجهولًا لدى أبناء لغته، وإنما الظاهر أن المترجمين حينما تعاملوا مع الإرث البريختي انصب اهتمامهم على أكثر ما برع فيه واشتهر بسببه في العالم؛ وهو المسرح، مما جعل العالم القصصي لبريخت منزويًا بعيدًا عن الأضواء.

وهذه القصص القصيرة التي نقدمها هنا ربما يطالعها القارئ العربي للمرة الأولى، فهي ليست من القصص

(11) *The Collected Short Stories of Bertolt Brecht, Bloomsbury Publishing Plc, London, 2015.*

التي اشتمل عليها كتاب «قصص من الرزنامة»، وهي موزعة على المحطات التي شهدتها حياة بريخت: فهناك ما كتبه في بداياته، وما كتبه بعد انتقاله إلى برلين عام ١٩٢٤، ثم ما كتبه بعد هجرته من ألمانيا عام ١٩٣٣.

- تنوير (١٩٢٠).
- الزوجة الحمقاء (١٩٢١).
- الأعمى (١٩٢١، ونُشرت ١٩٢٧).
- رسالة في زجاجة (١٩٢٢).
- الجواب (١٩٢٤، ونُشرت ١٩٢٧).
- محادثة عن بحار الجنوب (١٩٢٤، ونُشرت ١٩٢٦).
- تأملات في المطر (نُشرت ١٩٢٥).
- خطاب عن كلب الدرواس (١٩٢٤، ونُشرت ١٩٢٥).
- غلطة (١٩٣٨).

ومن المفيد بلا شك ملاحظة مدى تأثير تلك الفترات التاريخية على كتابات بريخت عامة، وانعكاساتها على قصصه خاصة، فالمعالجات المطروحة في هذه القصص تحمل ألوانًا من النقد للأوضاع الاجتماعية

والثقافية تتفاوت من قصة إلى أخرى. ولعل ميل بريخت إلى استخدام الرموز والإسقاطات يجعل هذه النصوص مفتوحةً على العديد من التأويلات.

* * *

تنوير

في الطريق الممتد على جانبيه أشجار الحَوْر كان يتمشى ذات مساء رجل في منتصف العمر. وبينما هو كذلك رأى كلبًا ضخمًا يطارد الحمام بجوار جدول ماء قاتم اللون. أدرك أنه غير مرحَّب به، فقرر العودة إلى منزله في الحال.

لم يحدث شيء استثنائي في ذلك اليوم. عمله يسير على ما يرام، وحبيبته هي الفتاة الوحيدة التي لم تُصَبْ بالغباء من بين جميع معارفه. في صباح ذلك اليوم وهو عند الحلاق حكى أحدهم قصة أبفيلبوك ذي الثلاثة عشر عامًا الذي قتل والديه رميًا بالرصاص. ارتجفت ركبتا الرجل وهو يصعد السلم.

استحوذ عليه التفكير في حالة أبفيلبوك. لقد احتفظ ذاك الفتى بجثتَي والديه في أحد الصناديق مدة سبعة أيام. فخطر له أن بإمكانه بكل سهولة قتل طبيب الأسنان في الغد، وليكن بالسكين.

لكن طبيب الأسنان لديه رقبة بضة ضخمة، ولن يتمكن من قتله بالطريقة الملائمة.

أراد أن يجلس على البيانو ويعزف شيئًا لهايدن. لكن أبفيلبوك قد انتظر سبعة أيام، وهي المدة التي قام خلالها -بسبب الرائحة المنفرة- بالانتقال في أول الأمر إلى غرفة المعيشة، ثم بعد ذلك إلى الشرفة. لم يستطع هايدن أن يطرد هذا من رأسه.

قطع الرجل الغرفة المظلمة ذهابًا وإيابًا، من نافذة إلى أخرى، محدِّقًا في الفراغ وفي الأسطح الزرقاء البعيدة في الأسفل، وجعل يعتصر يديه. هذا شيء يفوق الاحتمال، لقد مضت سبعة أيام.

بعد ذلك أوى إلى الفراش. «ليس بأيدينا شيء»، هكذا قال لنفسه. هذا الكوكب ليس إلا شأنًا مؤقتًا. إنه ينطلق بأزيزه في هذا النطاق الفضائي برفقة كل هذه الأنواع من الكواكب حول أحد النجوم في درب التبانة. على سطح كوكب كهذا ليس بأيدينا شيء، هكذا قال لنفسه. وبعدها اشتد الظلام وهو في الفراش.

كان عليه النهوض وإشعال الشموع. عثر على خمس منها، فأخذها وأشعلها ووضعها على أركان الفراش، اثنتان ناحية الرأس، واثنتان ناحية القدم، وواحدة على منضدة غرفة النوم. خمس شمعات بالعدد. «لا بد أن هذا يعني شيئًا»، هكذا قال لنفسه.

بعد أن أوقع نفسه في هذا الأمر، شم رائحة جثتي والديه. ألا ينبغي أن ينتقل إلى الشرفة؟ بالتأكيد لم يكن ليفعل. كان هذا من شطحات

الخيال، فلم تكن هناك أي شرفة على كل حال.

«ليتني أموت»، قالها الرجل لنفسه، «لكنها حلقة مفرغة. يا لي مِن عاجز! إن السجادة لونها أحمر حتى ولو لم يعجبني ذلك. وبعد موتي ستظل حمراء كما هي. السجادة أقوى منِّي، فهي ليس لديها تطلعات ولا يمكنها أن تتصرف بطريقة حمقاء».

كان البعوض يطن. نال مِن واحدة. انتصب على ركبتيه في الفراش كي يفعل هذا، ومرَّر يده على الحائط وقد تطايرت أكمامه. «تشعل خمس شمعات وتنال من بعوضة، يا له من شيء مفيد تفعله وأنت في النزع الأخير»، هكذا قال لنفسه.

«لو كان مقدرًا لي أن أموت، فكم أتمنى لو كان لديَّ طفل. ربما يكون لديَّ طفل. إن أنا مت، فلن يكترث أحدٌ. وإن بقيت على قيد الحياة، فلن يكترث أحدٌ أيضًا. يمكنني إذنْ أن أفعل ما يحلو لي، فليس هناك أحد يكترث».

نهض الرجل وهو في حالة من الاضطراب، وارتدى معطفًا عسكريًّا فوق قميصه، وخرج إلى الشارع بهذه الهيئة. لم يكن الظلام حالكًا تمامًا. بعض السحب كانت تمرُّ وهي مرئية كئيبة متلبدة، وفوهات المداخن السوداء تطعن السماء بكل قسوة.

مضى الرجل في سيره واضعًا يديه في جيبيه. همهم قائلًا: «ما أرق الدموع التي تذرفها العروس عندما يلطمها العريس على وجهها!». ثم أسرع في سيره مجتازًا الناس في الطريق، حتى انتهى به الحال إلى

الغناء بصوت عالٍ وهو يشيح بأكمام قميصه، فقد خلع معطفه وألقى به بعيدًا. على سطح كوكب كهذا لا أحد يحتاج إلى معطف.

على صوت غنائه العالي بقي يخطو بقدميه في الشوارع، ولم يعُد يستوعب أي شيء.

* * *

الزَّوجة الحمقاء

كان لأحدهم زوجة تشبه البحر. البحر لا يملك إلَّا أن يستجيب لأنفاس الرياح فيتغير، لكنه لا يصير أكثر ضخامةً ولا ضآلةً، ولا يغير لونه ولا مذاقه، ولا يصير أكثر صلابةً ولا ليونةً. وعندما تجتازه الرياح، يعود البحر ليستلقي من جديد ساكنًا كأن لم يحدث له شيء.

كان الرجل مضطرًّا إلى السفر. ولـمَّا حان وقت الرحيل، أعطى زوجته كل ما كان يملكه: منزله، وورشته، والحديقة المحيطة بالمنزل، والنقود التي كان يدَّخرها.

– هذا هو كل ما أملك، وهو من الآن صار ملكِكِ فاعتني به جيدًا.

ألقت بذراعيها حول رقبته باكية، وقالت له:

– كيف لي أن أقوم بهذا وأنا امرأة حمقاء؟

فنظر إليها وقال:

– إن كنتِ تحبينني فعليكِ القيام بذلك.

ثم ودعها وانصرف.

ولـمَّا وجدت الزوجة نفسها وحيدة، بدأت تخاف على كل هذه الأشياء التي استأمنها عليها زوجها، فأحست بالفزع. ولم تجد مَن تلجأ إليه إلا أخاها، وكان رجلًا لا يتمتع بشيء من الأمانة، فعمل على خداعها. وهكذا بدأت أملاكها تتبدد. ولـمَّا أدركت هذا، أحست باليأس والضياع، فامتنعت عن الطعام حتى لا يتلاشى ما لديها من أملاك، ولم تكن تستطيع النوم فأصابها الإعياء.

صارت طريحة الفراش في غرفتها، ولم يعد بمقدورها العناية بالمنزل فأصبح مكانًا خربًا. أما الحديقة والورشة فقد باعهما أخوها ولم يخبرها. كانت تستلقي في فراشها ولا تنطق بشيء، وكانت تقول لنفسها: «إذا لم أنطق بشيءٍ، فحينئذٍ لن أقول أشياء حمقاء. وإذا لم آكُل شيئًا، فحينئذٍ لن تتلاشى أملاكنا».

وحدث ذات يوم أن المنزل تقرر عرضه في مزاد، فأتى ناس كثيرون من جميع النواحي راغبين فيه؛ لأنه كان منزلًا جميلًا. كانت الزوجة مستلقية في غرفتها حينما سمعت وقع أقدام الناس وصوت ضحكاتهم، فقالت:

- السقف يتخلخل والحوائط تتصدع!

ثم خارت قواها، وراحت في سبات عميق.

ولـمَّا أفاقت وجدت نفسها ملقاة في حجرة خشبية على سرير صلب. لم يكن من شيء هناك إلا نافذة صغيرة بالأعلى، ورياح باردة تجتاح كل شيء. اقتحمت المكان امرأة عجوز، اندفعت إليها وأخبرتها بنبرة حادة أن منزلها تم بيعه، ولكن ديونها لم تسدَّد بعد.

وقالت لها إنها كانت تثير الشفقة، مع أن زوجها هو الذي كان يستحق هذا، فإنه لم يعُد الآن يملك أي شيء. ولـمَّا سمعت الزوجة ذلك اضطربت وانتبه عقلها قليلًا، فنهضت وبدأت تعمل في المنزل وتهتم بالزرع منذ ذلك الحين. كانت تروح وتجيء بملابس بالية، ولم تكن تأكل إلا القليل، ومع هذا لم تحصل على شيء؛ لأنها لم تكن تطلب شيئًا.

وحدث ذات يوم أنها سمعت زوجها عائدًا. حينئذ انتابها هلع شديد. فأسرعت إلى الداخل وحاولت إصلاح شعرها، وبحثت عن رداء نظيف، ولكنها لم تجد شيئًا تلبسه. وضعت يدها على صدرها، فوجدت نهديها قد أصابهما الذبول. ولـمَّا أدركت أنها لن تستطيع إخفاء ما حدث، هرعت إلى باب خلفي صغير واندفعت إلى الطريق دون تفكير.

وبعد أن ظلت تسير فترة من الوقت، خطر لها أن هذا زوجها قد عاد، وأنهما سيعيشان مع بعضهما البعض من جديد، في حين أنها الآن تحاول الهروب منه! فاستدارت من فورها وسارت عائدة، لم تعُد تفكر في المنزل ولا في الحديقة ولا في الرداء. رأته من بعيد، فاندفعت إليه وألقت بنفسها بين أحضانه.

كان الرجل واقفًا في منتصف الطريق والناس يضحكون منه وهم واقفون على عتبات بيوتهم. لقد كان غاضبًا. أما زوجته فقد التصقت به ولم ترفع رأسها من على صدره ولا أبعدت ذراعيها عن عنقه. أحس بها ترتجف، فاعتقد أنها ترتجف من الخوف لأنها أضاعت كل شيء.

لكنها أخيرًا رفعت رأسها ونظرت إليه. نظر إليها، فعلم أن ما هي فيه لم يكن من الخوف بل الفرح، لقد كانت ترتجف؛ لأنها كانت في غاية السعادة. وهنا لاحظ شيئًا، فتلعثم هو الآخر. طوَّقها بذراعه وقد اكتشف ما أصاب كتفيها من هزال، ثم طبع قبلة على شفتيها.

* * *

الأعمى

هو رجل بسيط قضى ثلاثين عامًا من حياته باحترام دون أن يقترف أي مخالفة، ثم فقد بصره. لم يعُد بمقدوره أن يرتدي الملابس الملائمة، وأصبح الاستحمام أيضًا في غاية الصعوبة. بلغ هذا الوضع حدًّا صار فيه الموت هو قمة الراحة- وليس وحده مَن سينالها.

ومع هذا فقد تحمل هذه المشقة منذ البداية بكل ثبات، واستمر هذا الحال طوال المدة التي بقي فيها قادرًا على الرؤية ليلًا.. في أحلامه، حتى ازدادت الأمور سوءًا.

سمح له أخواه أن يعيش معهما، وكانا يُبقيانه تحت ملاحظتهما. في النهار يذهبان إلى أشغالهما، فيظل الأعمى بمفرده في المنزل مدة ثماني ساعات أو أكثر في اليوم. الرجل الذي قضى ثلاثين عامًا من عمره مبصرًا -ولم يخطر على باله قط أن يفكر في نعمة البصر- قضى الساعات الثماني جالسًا في سريره في الظلام أو متجولًا في أرجاء الغرفة. في ساعة مبكرة جاء لرؤيته رفاقه الذين كان من قبل يلعب معهم الورق على مبالغ زهيدة. دار حديثهم حول السياسة والنساء والمستقبل. لكن الرجل الذي كانوا يرمقونه بأنظارهم لم يكن لديه

شيء في أيٍّ مِن هذه الثلاثة، بل لم يكن لديه عمل أيضًا. أخبره الرجال بما كان في جعبتهم، ولم يعودوا إليه مرة أخرى. بعض الناس يموتون سريعًا قبل غيرهم.

بقي الأعمى يقطع غرفته ذهابًا وإيابًا لِـما لا يقل عن ثماني ساعات يوميًّا إن كان محظوظًا ولم تمتد المدة أكثر. بعد ثلاثة أيام لم يعُد يصطدم بالأشياء. جعل يفكر في كل الأحداث التي مرَّت عليه، لمجرد تمضية الوقت، حتى إنه استعاد بسعادة بالغة تلك الصفعات التي تلقاها من والديه في صغره لكي يصير رجلًا صالحًا عندما يكبر. كل هذا استمر فترة من الزمن، لكن بعد ذلك صارت الساعات الثماني طويلة جدًّا عليه. لقد انقضى من عمر ذلك الشخص ثلاثون عامًا وبضعة أشهر، ويمكن للإنسان -إن حالفه الحظ- أن يعيش سبعين عامًا، ولذا كان يرجو أن يعيش أربعين عامًا أخرى. أخبره أخواه أن جسده بدأ يسمن بصورة ملحوظة، وهذا بالتأكيد راجع إلى أسلوب حياته السهلة. لو استمرت الأمور على هذا النحو، فسينتهي به الحال إلى أن تمنعه السمنة من عبور الباب فينحشر فيه، فيضطرون إذا حصل هذا أن يمزقوا جسده إن لم يريدوا تحطيم الباب. كان يسلي نفسه طويلًا بمثل هذه الأفكار. في المساء طلب من أخويه الذهاب إلى قاعة الموسيقى، فضحكا.

كانا طيبين جدًّا ويحبانه كما يحب الرجال بعضهم بعضًا؛ لأنه كان رجلًا محترمًا. ولم تكن العناية به سهلة عليهما، لكنهما لم يشغلا بالهما بهذا الأمر. في البداية كانا يأخذانه إلى المسرح من حين لآخر،

وكان هو مستمتعًا بهذا. ولكنه لـمَّا اكتشف طبيعة الكلمات الفجة المستخدمة هناك، أصابه الغم. وأما الموسيقى فشاء الله ألا يكون لديه أي استيعاب لها.

بعد فترة تذكر أخواه أنه مرت أسابيع عديدة على آخر مرة خرج فيها. فأخذاه معهما ذات مرة، ولكن أصابه الإعياء. وعندما أخذه أحد الأطفال ليتمشى في الخارج، هرب منه وانطلق ليلعب، فتملكه خوف شديد ولم يتمكن من الرجوع إلى البيت إلا في ساعة متأخرة من الليل. قلق عليه أخواه في ذلك اليوم، ولكنهما جعلا يضحكان، وقالا له:

- يبدو أنك كنت بصحبة امرأة!

وقالا أيضًا:

- لن نستطيع التخلص منك كما ترى!

كان كلامهما على سبيل المزاح فقد كانا مسرورين بعودته من جديد.

في تلك الليلة ظل وقتًا طويلًا لا يستطيع أن يخلد إلى النوم. لقد اخترقته هاتان العبارتان واستوطنتا رأسه الذي أصبح يستـثقل أن تحلَّ فيه مباهج الحياة كما يَستـثـقل منزلٌ بلا نوافذ أن يحلَّ فيه نزلاء مرحون. لم ير تعبيرات وجهيهما، لقد كانت تعليقاتهما قميئة. وبعد تفكير طويل في هذا الأمر بلا طائل، ألقى بهذه الأفكار جانبًا كما تُلقى قشور العنب الممضوغة على أرضية متسخة فتنزلق قدمك عليها.

قال له أحد أخويه ذات مرة أثناء تناول الطعام:

– يدك تبعثر طعامك وأنت تأكل، فلتستخدم ملعقتين إن لزم الأمر.

نزل عليه هذا القول كالصاعقة، فوضع ملعقته، وأتت أمام عينيه صورة لأطفال صغار وهم يتناولون الطعام. قاما على الفور بتهدئته. وما هي إلا لحظات حتى شرع هذا الأخ في تناول طعامه الذي جلبه معه من المصنع، فقد كانت الرحلة طويلة. لم يكد الأعمى الذي تمشَّى بمفرده ثماني ساعات في اليوم يستجمع أفكاره حيال ذلك، حتى سأله أخوه الآخر دون مقدمات إن كان يجد مشقةً في الاستحمام بمفرده. منذ ذلك اليوم والأعمى لديه نفور من الماء، ككلب مصاب برهاب الماء. تبين له الآن أن كيله قد طفح بتحمل هذا الوضع، فليس هناك أي مبرر على الإطلاق لأن يعيش أخواه هذان حياتهما في راحة وهناء وتفنى حياته هو في البؤس والوحدة.

أطلق لحيته ولم يعُد يستطيع التعرف على نفسه. ملابسه كان أخواه يتوليان غسلها، إلا أنه منذ ذلك الحين وبقع الطعام الذي يتساقط على ردائه تسوء أكثر وأكثر. وفي حدود نفس الفترة صارت له عادة غير مفهومة أن يستلقي على الأرض كما يفعل الحيوان.

بلغت به القذارة حدًّا أن أخويه لم يعُد بإمكانهما أن يصطحباه في أي مكان. صار عليه حينئذ أن يقضي يوم الأحد بطوله وحيدًا وهو يتمشى في الخارج . ووقعت في أيام الأحد هذه كثير من الحوادث المؤسفة. فقد سقط ذات مرة وبيده طست الاستحمام ساكبًا إياه على فراش أخويه، وقد استغرق جفافه فترة طويلة. وفي مرة أخرى ارتدى

بنطال أحد أخويه وتلطخ منه. ولـمَّا أدرك الأخوان أنه يفعل هذا متعمدًا، شعرا في أول الأمر بأسى بالغ لما وصل إليه حاله، ثم طلبا منه ألَّا يقوم بهذه الأشياء، فعندهما ما يكفي من البلايا. أنصت إليهما بهدوء، وأومأ برأسه، وأبقى هذه العبارة في صدره.

حاولا أيضًا أن يجدا له عملًا، وبالطبع لم يُكتب لهما التوفيق. فقد كان معروفًا عن أخيهما أنه أخرق، حتى إنه كان يتلف الأشياء التي يقوم بها. لقد وصلا إلى قناعة بأن حالته المزاجية تتدهور يومًا بعد يوم، ولكنهما لم يستطيعا فعل أي شيء حيال ذلك.

ظل الأعمى وهو يتمشى في الظلام يفكر في أساليب يزيد بها من آلامه ومعاناته حتى يتحملها على نحو أفضل. فقد بدا له أن العذاب الشديد أسهل في التحمل من العذاب الهين.

الشخص الذي كان دائمًا في قمة النظافة، وكانت تفخر به والدته في حياتها وتضرب به المثل لأخويه، بدأ الآن يزري بنفسه ويتبول في ملابسه.

هذا الوضع دفع أخويه إلى التفكير جديًّا في إرساله إلى إحدى المؤسسات. جعل يصغي إلى مداولاتهما من غرفة مجاورة. وعندما فكر في أمر المؤسسة، وجد أن كل ما مضى من مآسيه عذب جميل، فقد مقت فكرة الذهاب هناك بشدة. «كثير من الناس مثلي هناك»، هكذا قال لنفسه، «أشخاص تصالحوا مع بؤسهم وتحملوه كأفضل ما يكون التحمل. في ذلك المكان سيتم إغواؤنا لكي نسامح الله. كلا لن أذهب هناك».

عندما غادر أخواه المنزل ظل جالسًا فترة طويلة وهو يمعن في التفكير، وقبل أن يتوقع عودتهما بخمس دقائق فتح صنبور الغاز. ثم عاد فأغلقه ثانية عندما تأخرا عن موعد عودتهما. إلا أنه لـمَّا سمع صوتهما على السلم، فتحه من جديد واستلقى على فراشه. وجداه هناك فاستولى عليهما خوف عظيم. أحاطاه بعنايتهما طوال المساء، وحاولا استنهاض رغبته في الحياة من جديد. أما هو فكان يقاوم كل محاولاتهما بعناد. لقد كان هذا يومًا من أفضل أيام حياته.

سارت إجراءات قبوله في إحدى مؤسسات العميان بوتيرة سريعة. في المساء قبل اليوم الموعود كان الأعمى في البيت بمفرده، فقام بإشعال النار فيه. عاد أخواه مبكرًا على غير المتوقع فأخمدا الحريق. ولم يتمالك أحدهما غضبه في غمار ذلك فصرخ في الأعمى، وعدَّد كل البلايا التي تحملاها بسببه، ولم يترك له شيئًا من الوقائع المخزية أو الحوادث المؤسفة، بل كان على العكس شديد الإفراط في كل نقطة من كلامه. أنصت الأعمى بكل صبر وقد ارتسمت على وجهه ملامح الضيق. لكن أخاه الآخر -وكان لم يزل مشفقًا عليه- حاول أن يخفف عنه قدر الإمكان، فسهر معه حتى انقضى نصف الليل آخذًا إياه بين ذراعيه. أما الأخ الأعمى فلم تتحرك شفتاه بكلمة واحدة.

في اليوم التالي كان على الأخوين الذهاب إلى العمل، فانطلقا وهما مغمومان. وعندما عادا إلى المنزل ذلك المساء ليأخذاه إلى المؤسسة، كان الأعمى قد اختفى.

عندما حلَّ المساء وأتى إلى سمعه دقات ساعات المدينة،

نزل الأعمى درجات السلم. إلى أي اتجاه؟ إلى اتجاه الموت. كان يتلمس طريقه في الشوارع بمشقة، يسقط، يسخر الناس منه، يدفعونه، يوبخونه. إلى أن وصل إلى أطراف المدينة.

كان يومًا شتائيًّا شديد البرودة، لكن الأعمى كان في الحقيقة سعيدًا بإحساسه أنه يتجمد من البرد. لقد طُرد من منزله. صار الجميع يعادونه. لم يعبأ بهذا. جعل من السماء الباردة فرصة مناسبة لهلاكه. لم يسامح الله. لم يستطع أن يتقبل ذلك. لقد وقع عليه ظلم فادح. لقد صار أعمى، ولم يكن له أي دخل في هذا العمى، ثم ها هو طريد في الصقيع والرياح الثلجية. هذا ما جناه عليه أخواه اللذان يتمتعان بالإبصار.

اجتاز الأعمى في أحد المروج حتى وصل إلى جدول ماء. بدأ بالتوغل فيه قائلًا لنفسه: «الآن سأموت، الآن سأندفع في النهر. إن أيوب لم يكن أعمى، ولم يقاسِ أحدٌ مثلما قاسيتُ». ثم ألقى بنفسه في الجدول.

* * *

رسالةٌ في زجاجةٍ

أبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا. هذا العمر يقولون إنه يتسم بالاكتئاب، أما أنا فلست أعتقد أن اكتئابي بسبب عمري. وهذه هي قصتي.

عندما كان لي من العمر عشرون عامًا تعرفت على شاب كنت أشعر وأنا بقربه بالراحة والاطمئنان. ولأنه هو الآخر كان يبدو سعيدًا وهو بصحبتي فإن ارتباطنا لم يكن ينقصه إلا موافقة أهلنا، وقد وافقوا دون أدنى تردد. في المساء بعد أن تم الاتفاق، أخبرني أنه ينوي قبل أن يجمعنا رباط الزوجية أن يقضي عدة سنوات مسافرًا في المناطق الاستوائية. ولأن وضعي لم يسمح لي بأن أفرض نفسي عليه، لم أحاول أن أجعله يتراجع. بل تملكتني مشاعر الكبرياء الـمُرَّة، فوعدته بكل هدوء وتماسك أنني سأنتظره.

في اليوم التالي أخبرني أن رحلته ستبقيه بعيدًا مدة أطول مما كان يتوقع، فلن يكون عندي ما يكفي من الصبر لانتظاره، وهو منعته مروءته

أن يطلب مني شيئًا كهذا، وهكذا جعلني في حِلٍّ من وعدي. ووسط حالة الصدمة التي سيطرت عليَّ مع احتفاظي باتزاني، أخذتُ من يده رسالةً، ووعدته بصوت واهن ألَّا أفتحها إلا بعد مرور ثلاث سنوات. ثم افترقنا بكل فتور. بعدها بأيام غادر المدينة دون أن يودعني، ولم نتقابل مرة أخرى. أعرف أن قصة حبي عادية بل تافهة، لكن هذا لم يخفف من مرارتها أبدًا.

ثلاث سنوات وأنا محتفظة بالرسالة مغلقة كما هي رغبة كاتبها، فأنت لا يمكنك أن تحظى بشيء ليس لك. وبعد انقضاء الثلاث سنوات، فتحت الرسالة، وإذا بي أجد ورقة فارغة. كانت الورقة بيضاء رقيقة ولا يفوح منها أي شيء على الإطلاق، ولا توجد أي نقطة حبر عليها! أصابني هذا بالحزن الشديد.

إنني كنت في بادئ الأمر أشعر بأنني صفحة بيضاء وهذا طبيعي. لكنني منذ ذلك الحين وأنا مشغولة بالتفكير في أمري كثيرًا، حتى ازداد اضطرابي أكثر فأكثر بمرور الوقت. إن وجهي لا يزال يحمرُّ من مجرد التفكير في أن هناك مَن يريد الاستهزاء بامرأة تعيش في أحزانها، ولا أقدر أن أصدق أن هذا كان مصادفةً؛ لأن ذلك قد يجعلني أبدو سخيفة. ثم وجدتُ عزائي بعضًا من الوقت في تلك الفكرة: أن البحارة الذين يرسون على ساحل شيلي يعهد الواحد منهم إلى البحر بزجاجة تحتوي على مذكراته التي كتبها في ساعاته الأخيرة، ثم بعد عشرين عامًا ربما يقوم بعض الصيادين بفتح الزجاجة، ومع عدم قدرتهم على فهم الحروف الأجنبية إلا أنهم سيحسون طبيعة هذه

المواضيع التي قُذف بها في البحار الغريبة. قد تكون البحار والأمواج شتَّتت أصحاب هذه الرسائل، أما الحروف المحتفظة بنضارتها منذ اليوم الذي كُتبت فيه فلا تبوح بالمدة التي انقضت على كتابتها. تخيَّل كم ستكون الرسالة سخيفةً لو أمكن قراءتها، فكم هو مستحيل في حياة الواحد منا أن يجد كلمات لا تحطم الصمت الذي يلي الموت ولا تقول أشياء وضيعة.

ولكن بمرور الوقت لم أعُد أتقبل هذه الفكرة، فقد كانت من شدة عزائها تستعصي على التصديق. وسرعان ما اقتنعتُ بأن الحروف خلال هذه السنوات الثلاث قد تكون تلاشت: الزمن كفيل بمداواة الجراح. قد يكون لي عذري هنا أن أذكر فكرة قد تبدو بعيدة الاحتمال وإن كانت تسيطر عليَّ منذ الوهلة الأولى. فكما تعلمون هناك ما يُدعى بالحبر السري الذي يكون صالحًا للقراءة مدة محددة من الزمن ثم يتلاشى، وقطعًا فإن أي شيء يستحق التسجيل قد يستوجب كتابته بهذا الحبر. وأود أن أضيف أيضًا أنه منذ عام واحد -أي بعد عامين من إعطائي الرسالة التي ليست سوى ورقة فارغة- اختفى حبيبي تمامًا عن خاطري، ربما إلى الأبد. إنني بعد صبر ثلاث سنوات على رسالة لم يكن أحد مقصودًا بها غيري، ليس عندي ما أقوله سوى أنني كنت أعتقد دائمًا أن الحب ليس للمحب عليه أي سلطان، وأنه شيء يخص المحب وحده، ولا يخص أحدًا غيره.

* * *

الجـواب

كان هناك رجلٌ غنيٌّ، وكانت له زوجة شابة أغلى عنده من كل ثروات الدنيا، والثروات لا يستهان بها. ومع أنها تقدمت في العمر قليلًا، وكذلك هو، إلا أنهما كانا يعيشان معًا كما يعيش الوليفان من اليمام. كان لديه يدان ماهرتان، هما يداها. وكان لديها عقل ماهر، هو عقله. وكانت غالبًا ما تقول له:

– أنا لا أستطيع التفكير جيدًا يا عزيزي، فالكلام يخرج مني على عواهنه.

أما هو فكان حادًّا كالموس، ولذلك ازدادت أملاكه أكثر وأكثر.

وحدث ذات يوم أن رجلًا حان موعد سداد ديونه، ولم تكن سمعة هذا الرجل طيبة، وكان لديه بعض الأملاك التي يحتاجها الرجل الغني بشدة، فلم يتسامح معه، ووضع يده على أملاكه. أُجبر الرجل على أن تكون تلك الليلة هي آخر ليلة له يقضيها في منزله الذي عاش فيه كل أيام حياته، والذي سيصبح من بعده بلا مأوى شأن سائر المشردين،

ففي اليوم التالي ستتم مصادرة كل شيء.

في تلك الليلة، لم تستطع زوجة الرجل الغني أن تنام، فقد ظلت مشغولة البال وهي مستلقية بجوار زوجها، إلى أن نهضت من الفراش. نهضت في منتصف الليل، وتوجهت إلى جارهما الذي كان على وشك أن يطرده زوجها. رأت أنها لن تشين زوجها إذا هي ساعدت جارهما دون علمه، فهي لم تكن تتحمل أن ترى هذا الرجل وهو يعاني. الرجل مستيقظ هو أيضًا، وهذا ما توقعته، وكان جالسًا بين جدرانه الأربعة مستمتعًا بهذه الساعات إلى أقصى حد. ولـمَّا رآها، أخذه الفزع، ولكنها لم تكن تريد إلا أن تعطيه شيئًا من مجوهراتها.

هذه المدة التي استغرقتها في هذا الأمر كانت سببًا في استيقاظ زوجها، أو ربما لأنه شعر وهو نائم أنها ليست بجواره. نهض من الفراش وتجول في المنزل وهو ينادي عليها، فخاف أن يكون أصابها مكروه، فخرج إلى الشارع. رأى إضاءة في منزل جاره، فاقترب أكثر ليرى إن كان الرجل يحرق شيئًا مما لديه ليتخلص منه. وبينما هو كذلك نظر عبر النافذة، فرأى زوجته في منزل جاره في منتصف الليل. لم يستطع سماع شيء ولم يتمكن من رؤية العلبة التي في يدها. وهنا فار الدم في عروقه وشكَّ في زوجته. كان في تلك اللحظة يضع سكينًا في جيبه، فأمسكها وفكر في طريقة يقتل بها كليهما. ثم سمع زوجته وهي تقول:

– فقط خذ هذا، فأنا لا أريد لزوجي أن يقع عليه وزر هذا الأمر، كما لا أريد أن أجرحه بمساعدتي لك لأنك رجل غير مستقيم.

وعندئذٍ توجهت إلى الباب، فأسرع زوجها ليختبئ؛ لأنها خرجت مسرعة وهرعت إلى منزلها.

عاد خلفها إلى المنزل في صمت. ولـمَّا دخل أخبرها أنه لم يكن يستطيع النوم فخرج إلى العراء؛ لأن ضميره كان يعذبه؛ لأنه سيستولي على منزل جاره. فألقت بنفسها على صدره وأجهشت بالبكاء، فهكذا كانت تعبر عن فرحها. لكنهما بعد أن عادا إلى النوم معًا، كان ضمير الرجل قد بدأ يؤنبه بقسوة، وأحس بالخزي والعار؛ لأنه صار حقيرًا مرتين: الأولى عندما شكَّ في شرف زوجته، والثانية عندما كذب عليها. وبلغ به الشعور بالخزي أنه اقتنع تمامًا أنه لم يعُد يستحقها. فنهض ونزل إلى غرفة المعيشة، وهناك جلس مدة من الوقت تمامًا كما فعل جاره في المنزل المقابل. لم يكن هناك أحد بمقدوره أن يساعده وقد صار في قمة العجز عن فعل أي شيء، فاسودَّت الدنيا في عينيه. ولم يكد يسفر الصبح حتى خرج من المنزل ولم ينقشع الظلام بعد، فأسلم قدميه للطريق هائمًا على وجهه كالرياح المتقلبة.

ظل يمشي ويمشي يومًا كاملًا دون أن يتوقف ليتناول طعامًا، إلى أن أوصله الطريق إلى منطقة خربة. ولـمَّا أتى على قرية في الطريق، دار حولها وأكمل مسيره. في المساء وصل إلى أحد الأنهار القاتمة، ووجد بجواره كوخًا متهالكًا مهجورًا. كان هناك زرع كثير يملأ الحقول الممتدة في المكان، وكان النهر مليئًا بالأسماك، فأقام الرجل هناك ثلاث سنوات قضاها في جمع الزرع واصطياد السمك. ثم استولت عليه مشاعر الوحدة الموحشة، حتى إن صوت المياه صار

مزعجًا جدًّا له، والأفكار -التي تشبه الطيور وهي تحلق في الفضاء وتلقي بفضلاتها علينا- صارت مزدحمة جدًّا في رأسه. حينئذٍ مضى إلى مدينة، ومن مدينة إلى مدينة دون أن تكون له وجهة محددة، وكان يتسول ويفترش الكنائس.

لكنه بمرور الوقت كانت أفكاره تُحكِم قبضتها عليه وتعذبه بشدة. فبدأ يشرب ويركض هنا وهناك ككلب لا يستحق أن يوضع طوق في عنقه. قضى سنوات عديدة على هذا النحو. وحدث ذات يوم -بعد أن وصل به الحال أن نسي اسمه، وأصبح شبه أعمى_ أنَّ قدميه قادتاه إلى المدينة التي كان يعيش فيها منذ تلك السنوات العديدة التي انقضت، ولم يستطع حتى أن يتعرف عليها. لم يذهب في سيره أبعد من أطراف المدينة، فافترش فناء أحد الفنادق هناك.

وفي ظهيرة أحد الأيام حضرت امرأة ودخلت الفناء وتحدثت مع صاحب الفندق. ولـمَّا سمع المتسول صوتها انتفض، وبدأت دقات قلبه تتسارع، كرجل دخل بالخطأ إلى غرفة تُعزَف فيها موسيقى جميلة وليس مصرحًا له بالدخول. نظر الرجل فوجد أن هذه المرأة التي تتحدث هي زوجته، وكان عاجزًا عن أن ينطق بكلمة واحدة. فقط مدَّ يده إليها عند مرورها. أما هي فلم تتعرف عليه؛ لأنه لم يعُد يشبه ذلك الرجل الذي كان مِن قبل ولا حتى في شيء واحد، فقد تغيرت معالم وجهه بعد هذا الكم من العذابات التي لا يخطر على بال أحد أنه تعرض لها. لم تُعِرْه المرأة اهتمامًا؛ فهناك متسولون كثيرون في المكان، وهذا المتسول كغيره لم يخجل من استجداء الناس. تمكن

الرجل من فتح فكّيه ونطق بشيء أشبه ما يكون بكلمة: «زوجتي!».

وهنا انحنت المرأة ونظرت إليه، فبدأت ترتجف ركبتاها ويشحب وجهها. ولـمَّا هدأ صوت دقات قلبه، سمع صوتها وهي تقول:

- زوجي العزيز! كم من الوقت تركتني وأنا أنتظرك! لقد انقضى وقت طويل حتى صرتُ الآن دميمة، مرَّت سبع سنوات لم يبرح فيها وجعي حتى كدتُ أفقد إيماني بك!

* * *

محادثةٌ عن بحار الجنوب

في دار النشر التي أتعامل معها، قابلتُ رجلًا قضى خمسة عشر عامًا في البرازيل. سألني عن أحوال برلين. وعندما أخبرته، نصحني بأن أتوجه إلى بحار الجنوب. قال لي إنني لا يمكنني أن أقاومها. لم يكن عندي مانع، فسألته عن الأشياء التي عليَّ أن آخذها معي. فقال:

- خذ كلبًا قصير الشَّعر، هذا هو أفضل صديق للإنسان.

كان من الطبيعي أن أفكر في أن أسأله عن جدوى الكلب قصير الشَّعر في حالة وقوع كارثة، ولكن أدركت بالمنطق السليم أن الشَّعر الطويل سيشتبك في ألياف جوز الهند!

سألته عمَّا يمكن عمله هناك في بحار الجنوب طوال اليوم. فقال:

- لا شيء. لست بحاجة إلى العمل أصلًا.

- جميل، العمل لن يروق لي بالفعل، ولكن بالتأكيد يوجد ما يمكن للمرء فعله هناك.

- عندك الطبيعة سحرها ليس له حدود.

- طيب ما الذي يمكن فعله، وليكن في الثامنة صباحًا؟

- الثامنة صباحًا! ستكون حينها لا تزال نائمًا.

- وماذا عن الظهيرة؟ الساعة الواحدة؟

- في الواحدة لا يمكن فعل شيء لشدة سخونة الجو.

هنا فقدت أعصابي. نظرتُ إليه باشمئزازٍ، وقلتُ:

- وبعد الظهر؟

- لا بد أن يكون عندك طريقة ما لشغل ساعة من الزمن.

في النهاية يبدو أنه قد أدرك أنني لست من نوع الرجال الذين يستطيعون أن ينشغلوا بأنفسهم، فقدم لي اقتراحًا:

- خذ بندقية صيدٍ، واقضِ بعض الوقت في الرماية.

كنت حينئذٍ في حالة مزاجية بالغة السوء، فأخبرته باقتضاب:

- الرماية ليست من اهتماماتي.

- فكيف ستستطيع العيش هناك إذنْ؟

قالها وهو يبتسم.

- إنه أنت مَن عليه أن يخبرني بذلك. مهمتك هي تقديم الاقتراحات، أما أنا فكيف لي أن أعرف شيئًا عن بحار الجنوب؟

- هل ترغب في صيد السمك؟

- لا مانع عندي.

قلتها بتحفز.

– رائع. خذ معك صنارة صلبة، يمكنك شراؤها من أي محل، وفي غضون خمس دقائق سيكون لديك سمكتان في خطافك. وبهذا يمكنك أكل السمك إن كنت لا ترغب في الرماية.

– نيِّئ؟

– ستكون معك قداحتك بالتأكيد.

قلت له وقد ضاق صدري من هذه السذاجة:

– سمكة مطهوة على قداحة لا تكاد تمثل وجبة أساسًا! طيب هل يمكنني على الأقل التقاط الصور؟

فقال وقد بدا عليه الارتياح:

– هذه هي الأفكار! سوف تكون الطبيعة بأسرها تحت تصرفك. لا يوجد مكان في العالم يمكن التقاط الصور فيه أكثر من هذا المكان.

هنا بالطبع صارت له الغلبة. سوف يجعلني ألتقط الصور على مدار اليوم، وهذا سيبقيني مشغولًا، ويجعلني أقيم هناك بسلام.

لكن صدقني فيما أقول، لقد بقيت مطروحًا في بحار الجنوب سنوات. وليست عندي أدنى رغبة في رؤية رجل آخر كهذا الرجل مرة أخرى.

* * *

تأملاتٌ في المطر

اعتادت جدتي أن تقول عندما تمطر السماء فترةً طويلةً:

– هي اليوم تمطر، فهل تتوقف؟ لا أعتقد ذلك، فهي لم تتوقف في زمن الطوفان. إن ما حدث مرة يمكن أن يحدث أكثر من مرة، وهكذا هو الحال مع ما لم يحدث.

كانت تبلغ من العمر أربعة وسبعين عامًا، وتفتقد تمامًا إلى المنطق.

في تلك الواقعة صعدت جميع الحيوانات بسلام إلى السفينة، وهي المرة الوحيدة التي كانت فيها كل المخلوقات على الأرض في حالة سلام. كلهم صعدوا جميعًا، إلا الإكصور فقد نأى بنفسه. لقد قيل له بطريقة مبهمة إنَّ عليه الصعود إلى السفينة، ولكنه لم يكن لديه وقت آنذاك. ولقد حذره نوح بنفسه من مجيء الطوفان، فما كان منه إلا أن قال:

– أنا لا أصدق هذا.

لم يكن أحد متعاطفًا مع الإكصور حينما أدركه الغرق.

- آها آها..

هكذا هتف الجميع، بينما راقب نوح ما يحدث وهو يشعل المصابيح على السفينة لأول مرة:

- المطر لا يزال ينهمر!

- آها آها، لن يصعد الإكصور.

كان هذا الحيوان هو أقدم جميع الوحوش، وكان بحكم خبرته الطويلة لديه قدرة تامة على معرفة ما إذا كان شيء كمجيء الطوفان سيقع أم لا.

قد أتمنع أنا أيضًا إن وُضعت في ظروف مشابهة. وأنا أعتقد أن الإكصور في تلك الليلة الظلماء التي هلك فيها كان يعتقد بزيف الأقدار وبالغباء المتناهي لجميع مخلوقات الأرض، ولكنه أدرك في تلك اللحظة كم كانت هذه الأمور ضرورية!

* * *

خطابٌ عن كلب الدّرواس

مِن الأحداث القليلة في حياتي الهادئة التي أثرت فيَّ كان زلزال سان فرانسيسكو، والسبب في ذلك كان كلبًا.

وحيدًا في هذا العالم ولي ثلاثة وعشرون عامًا تعرفت على كلب درواس في سان فرانسيسكو. كنت أعيش في الطابق السادس في عمارة متهالكة وأتقاسم مع سكان آخرين ردهة عفنة، طلاؤها الأبيض من أسوأ ما يكون. هناك اعتدت على ملاقاة الدرواس عدة مرات في اليوم. كانت تملكه عائلة مكونة من خمسة أفراد يعيشون في غرفة واحدة لا تزيد في مساحتها عن غرفتي. كانوا أشخاصًا مناظرهم رثة، ومن عاداتهم القذرة ترك سلات القمامة وهي مليئة بالنفايات المنتنة على أبواب منازلهم أيامًا عديدة. وأمَّا وصْف الكلب فمما يفوق احتمالي.

لا أتذكر أول مرة التقيت فيها بهذا الدرواس. ولكنني أعتقد أن أول انطباع تكوَّن لديه عندما رآني قد يكون هو الخوف، وأنا أيضًا

قد انتابني إحساس بغيض (ربما نتيجة لذلك). على أي حال فإن النفور الواضح وغير المبرر إطلاقًا مِن قبل ذلك الوحش هو أول ما لفت انتباهي إليه. عند رؤيته لي وهو مستمتع باللعب مع الأطفال (الذين كانوا بالمناسبة في غاية القذارة) كان يتسلل خلسة إلى الركن، أو بالأحرى ينزوي إلى أحد الأبواب المفتوحة وذيله بين رجليه. في الواقع كنت عندما أحاول أن أربت عليه لأبدد مخاوفه الحمقاء التي كانت فعلًا كما لاحظت تجعل الأطفال يحدقون فيَّ وهم مرتعبون، كان في المقابل يرتعد بل وأكيد -وإن كنتُ لا أرغب في ذكر ذلك- أن شعره كان يقف، فقد فاجأتني صلابة شعره، ولم أدرك إلا لاحقًا أن هذا يمكن أن يكون ما يقصده الناس عندما يقولون: لقد وقف شعره!

لو كان الذي أخذ مني هذا الموقف واحدًا من الناس، لظننت أنه التبس عليه الأمر وحسبني شخصًا آخر. لكن كلب! إنني منذ الوهلة الأولى -وأنا أتذكر هذا جيدًا- كنت أبعد ما يكون عن التقليل من أهمية هذا الأمر. وفي الأيام التي تلت ذلك كنت من حين لآخر أجلب شيئًا للدرواس، طعامًا أو عظامًا. أمَّا هو فكان ينزوي بعيدًا دون أن يعير العظام أي اهتمام ولو حتى بمجرد الشم، ويلقي إليَّ بنظرة توبيخ لا توصف، وهي في نفس الوقت نظرة مرتبكة، ثم ينصرف. كان عادةً يتوارى في وسط مجموعة من الأطفال القذرين الذين لا يقال عنهم إلا أنهم النسل البائس لحثالة الأرض، فما يفوح من بول الأطفال يبوح بكل شيء. نادرًا ما كنت أتمكن من الانفراد بالدرواس، وقد حرصتُ على عدم الاقتراب منه في حضور

شهود عيان. ومع ذلك كان للأطفال أساليبهم اللعينة في الكشف عن محاولاتي للتقرب من الكلب، على الرغم من أنها بلا شك لم تكن مؤذية. ومنذ ذلك الحين ودون أن يتعرفوا على نيتي الطيبة، بدأوا يشيرون إليَّ بأصابع الاتهام. طوال هذا الوقت كنت مقتنعًا بأن أصحاب هذا الدرواس لم يكونوا يطعمونه الطعام الكافي، بل ربما لم يكونوا يوفرون له احتياجاته الأساسية.

لم يكن لديَّ وقت بالطبع لدراسة حالة هذا الكلب، فقد كنت أعمل نهارًا في مصنع للسيارات، ولهذا فلم يكن لديَّ إلا فترات المساء أقضيها كما يحلو لي. ومع ذلك فقد تمكنتُ من مراقبة عدد غير قليل من الأشخاص وهم يتعاملون مع الدرواس. كان الساكن المجاور لي على سبيل المثال، وقد حدث انسجام معقول بينه وبين الكلب، حين يريد جذب انتباهه يطقطق بأصابعه كما يفعل كثير من الناس. وعلى إثر ذلك كان الكلب في الغالب يحك نفسه بلا تحرج في رجل بنطاله المتسخ. حتى أنا مارست بنفسي هذه الحيلة الصغيرة التي يمكن لأي أحد أن يتقنها، لكن كان لديَّ ما يكفي من الاحترام لذاتي لعدم تجريبها على الكلب. وكانت في العمارة امرأة عجوز، ما إن يراها الدرواس، حتى يركض وراءها. هذه العجوز، وهي شخص غير مريح وصوتها الحاد يجعلك تجز على أسنانك، لم تكن تطيق الدرواس، وحاولت دائمًا إبعاده عنها بحقيبة التسوق الخاصة بها ولكن دون جدوى. ومع شدة ضيقها إلا أنها لم تستطع التخلص منه.

وفي جيراننا كانت هناك فتاة تضع الكثير من المساحيق اعتادت أن تتحدث إلى الدرواس وهي تلاطفه وتداعب الطيات التي تحت فكه. وذات مرة عندما وقفتُ قبالة هذه الفتاة في الباص -وكانت وظيفتها في الحياة هي الاهتمام بنفسها- لاحظتُ أن رائحة فمها كريهة. مثل هذه السمات الشخصية، التي قد لا تكون ضارة ولا مهمة في حد ذاتها، دائمًا ما تكون مؤشرًا في رأيي على وجود كثير من التشوهات الداخلية. لقد فاجأني أن كلبًا ذا غرائز سليمة تمامًا كهذا الدرواس لم يلحظ هذا الخلل في الفتاة. وهذه اللفتة سرعان ما قادتني إلى الشك في غرائز الكلب.

بدأتُ أفكر أنه ربما تكون لديَّ بعض المظاهر الخارجية التي تدفع الدرواس إلى أن يتجنبني. بدا ذلك أمرًا مستبعدًا، لكني لم أشأ التغاضي عن أي احتمال. قمت بتغيير بدلتي وقبعتي، بل وتركتُ عصاي في المنزل. ولك أن تتخيل أنني فعلت كل هذا وأنا في غاية التردد، وكنت مدركًا لما يتضمنه ذلك من إهانة لنفسي، لكن لم تكن بيدي حيلة. وقد اكتشفتُ من خلال إحدى الوقائع المريرة مدى انشغالي بهذا الأمر. كان ذلك حين اضطررت للأسف أن أقوم برحلة مضجرة إلى بوسطن، فقد كنت متوجسًا من قيام أخي الأصغر ببعض المراوغات البارعة ليستحوذ على حقي في ميراث والدتنا. حينها رجعتُ وأنا أجر أذيال الخيبة، فما الحاجة في هذه الحياة إلى وجود دليل إذا كان الظلم واضحًا وضوح الشمس! وعند رجوعي وجدتُ الدرواس قد رحل.

أول رد فعل لي كان الشعور بالألم؛ لأنه ذهب. في الواقع كنت أعتقد أن شعوري بالإحباط قد يكون أخف من هذا لو أن شاحنة شطرته نصفين. فكرة أن الكلب الذي كنت مشغولًا بأمره يهرب هكذا من سيده كانت بالنسبة لي مجرد دليل آخر على عدم عدالة هذا الكوكب في تعامله مع الكائنات التي تعيش عليه. ومع أن موقفه تجاهي كان يشغلني على سخافته، إلَّا أنه لم يكن عندي أكثر من مجرد كائن وضيع. وأكثر ما أهمَّني هو قلقي الشديد من فشله في العودة. بذلت جهودًا للبحث عنه وعرضتُ مكافأة لمن يعثر عليه، وكان لهذا فضل كبير في رجوعه أخيرًا. لكن عدم ثقتي فيه ظلت تلازمه منذ ذلك اليوم وحتى نهايته المشؤومة.

بعد المتاعب التي أخذتها على عاتقي لإعادته إلى ما كان عليه، كان من الطبيعي أن أعتبر الكلب من جملة ممتلكاتي. لكن أصحابه الحقيقيين تصرفوا وكأنهم لا يعرفون كم كلَّفني استعادة كلبهم، فسقطوا من نظري أكثر. لم أقبل على نفسي أن أظل أعامل وكأنني لست موجودًا.

بعد عودته بفترة وجيزة، رأيت الدرواس ينزل السلم مع الساكن المجاور. وعندما توقف الرجل لتعبئة غليونه بجوار إحدى النوافذ المطلة على الفناء، جعل يحك نفسه مجددًا في ساقه. لم يعره الرجل أدنى اهتمام، وهذا صدمني لفظاعته. وعندما استفسرت، تبين لي أنه كان يعيش نزيلًا على العائلة المكونة من خمسة أفراد. بعد بضعة أيام سألتُ مسؤول العمارة إن كان من المسموح للسكان بحسب علمه

أن يقيم نزلاء معهم في غرفهم. فأخبرني وهو في غاية الإحراج أنه لا يعرف، ولكن يمكنه أن يكتب رسالة إلى الشركة إن كنتُ أرى ذلك مناسبًا. فتركت الأمر له؛ لأنه لم يكن من اختصاصي.

بعد أسبوع وعقب عودتي من العمل لاحظت وجود عربة يدوية وبعض الأثاثات البالية أمام المنزل. على السلم مررتُ على فتاة تسعل بشدة وهي تحمل صندوقًا إلى الأسفل. فاستنتجت أن رسالة مسؤول العمارة قد آتت ثمارها، فواضح أنه محظور بالفعل استضافة نزلاء.

عندما أعملت تفكيري في الموضوع، أدركت كم كان صعبًا على هؤلاء الأشخاص إضافة إلى مصاعبهم الأخرى -وما أكثرها لديهم، فيكفي أن تلقي نظرة على ملابسهم- أن يضطروا إلى تحمل نفقات الانتقال. كما أن اقتسامهم غرفتهم الضيقة مع أحد الغرباء لم يكن من باب الجود والكرم. وبينما أنا واقف أمام بابي في المساء أدخن الغليون، سمعتهم وهم يتناقشون فيما عليهم أن يفعلوه بكلبهم، ولم يكن اهتمامي بالكلب فقط هو الذي جعلني أصغي إلى حديثهم بتعاطف بالغ. ولـمَّا أشركوني معهم في الحوار وطلبوا رأيي في هذا الأمر، قلت لهم إنني على استعداد لأخذ الكلب عندي. في ظل هذه الظروف الجديدة بدا واضحًا تمامًا أنهم لم يعودوا قادرين على تحمل مثل هذا الترف المكلف، فهكذا كان حال الدرواس بلا شك. حينئذٍ وافقوا على تسليمه لي.

أعترف أنني لست مستاءً من الطريقة التي تبدلت بها الأحوال، مع ما تضمَّنه ذلك من قسوة. فأنا كنت دائمًا مقتنعًا أن المرء إذا ترك

الأمور تأخذ مجراها دون تدخل وفي نفس الوقت يقتنص ما يتاح له من فرص، فإن الأمور أكيد ستسير من تلقاء نفسها.

لم يكن من السهل عليَّ نقل الدرواس إلى غرفتي، فقد قاوم ذلك بكل ما أوتي من قوة، وإن كان ذلك دون أن يُصدر صوتًا أو يُبعد عينه عني. لكن رباطًا جلديًّا متينًا اشتريته قبل ذلك بأسبوع كان كفيلًا بإتمام المهمة.

لم يكن منظر الدرواس لطيفًا، وقد أبقيته مربوطًا في ساق سريري. كان طوال فترة وجودي في الغرفة يتوارى تحت السرير دائمًا، وكلما اقتربت منه أو حتى ذهبت إلى السرير يرتعد جسده بالكامل. وعندما أكون بالخارج -أو بالأحرى عندما أراقبه من ثقب المفتاح- يتجول بلا هوادة ذهابًا وإيابًا أمام السرير إلى أقصى مسافة يسمح بها الرباط الذي لم يكن بالغ الطول. أود هنا أن أقول لعشاق الكلاب إن الأسطوانة المحفوظة عن حزن الكلاب على فقدان أصحابها ليست سوى كلام فارغ. فمع رواج هذه الشائعة والتسليم المطلق بها، إلا أنها ليست سوى مثال بسيط على غرور الإنسان، فأنا عن نفسي لم أَرَ أي علامة من علامات الحزن على كلبي هذا.

أما كونه لا يأكل أي شيء، فهذا كان لسبب مختلف تمامًا وهو ما أصابني بالضيق، فهو لا يأخذ شيئًا من يدي على الإطلاق. لقد مكث ثلاثة أيام يرفض مجرد النظر إلى العظام التي اشتريتُها له، وفي اليوم الثالث تعامل باحتقار مع قطعة لحم بقري من أفضل ما يكون. لا يأكل شيئًا مما أضعه له، لا يأكل أي شيء لمسته بيدي.

أعترف أن هذا سبب لي حرجًا شديدًا (فقد ازداد نحافة بشكل ملحوظ، وبدأ يـجرُّ قدميه أثناء المشي). في لحظات الغضب فكرتُ في أن أنال منه وأجبره على تناول الطعام الذي لا يأكله، لكنني في لحظات الهدوء أدركتُ أن العنف لن يحل شيئًا.

عندئذٍ أحضرت شابًّا أعرفه معرفةً سطحيةً، وهو ميكانيكي من مصنع السيارات، لعله يتمكن من إعطائه شيئًا يأكله. وبعد أن أدخلت الرجل إلى غرفتي وجدت صعوبة بالغة في أن أفتح الموضوع معه، وبرغم عصير الليمون والسجائر التي قدمتها له، إلَّا أن المحادثة بيننا سارت على نحو متقطع. كان زميلًا رث الثياب من بيئة فقيرة وله أسنان هشة وشعر أحمر باهت. كان من الصعب عليَّ أن أهضم مشاهدته يجلس على مائدتي، ومجرد الاستماع إليه وهو يتكلم يكاد يصيبك بالغثيان. هذا إلى جانب أن من عادته أثناء حديثه أن يمسكك بقبضة يده، وهو ما لا أُطيقه. بعد ذلك أدرك أن هناك خطبًا ما، فخبثه لم يكن له حدود. لكز الدرواس لكزة خفيفة بإصبع قدمه، وتحدث بطريقة مصطنعة فترة من الوقت كما لو كان لا يفهم شيئًا. وعندما لاحظ ارتباكي قام بابتزازي في آخر المطاف، بعد أن نجح في معرفة كافة التفاصيل، فجعلني أتوسل إليه أن يعطي الكلب شيئًا يأكله. (وطبعًا لم يكن الكلب ليلحظ أي شيء).

امتثل لطلبي بطريقة لا تروِّي فيها، فقام بتعنيف الدرواس وتوبيخه على موقفه العدائي مني. وبهذا الأسلوب صار الكلب يتغذى كل مساء لمدة أسبوعين.

من الغريب أنني لم أكن أستطيع التخلي عن هذا الأمل المبهم بداخلي، فقد تطلب الأمر حدوث زلزال لإقناعي بأن موقف الكوكب مني ثابت لن يتغير. ففي الثالث والعشرين من يونيو سنة ١٩١٢ وقع زلزال سان فرانسيسكو. في ذلك اليوم فقد كثير من الناس حياتهم في تلك المدينة المرتـجَّة. أمَّا أنا فكان كل ما فقدته هو بدلة وحذاء وبعض الأجهزة المنزلية، فلهذا قد يكون نسياني للكارثة أسهل من غالبية الناس، لكن الأمر لم يكن كذلك. فوسط الهزات العنيفة التي كانت شدتها تزداد شيئًا فشيئًا، وفي منزل مشتعل بالنار، وقفتُ وأنا لا أرتدي إلا قميصي أنظر مباشرةً في عين الدرواس العنيد الذي انحشرت مؤخرته في أنقاض أحد الحوائط المنهارة. ذهبت لمساعدته، فرأيت في عينيه الباهتتين خوفًا لا يوصف مني أنا مخلِّصه، وعندما هممتُ بتحريره حاول أن ينهشني.

مرَّ عامان على ذلك اليوم، وأنا الآن أعيش في بوسطن، لكن ظلت تساؤلاتي حول موقف الدرواس بلا إجابة بعد موته. ما الذي دفعه إلى رفض اليد التي مددتها له؟ هل السبب هو عيني التي لنظرتها مفعول السحر على كثير من الناس (هكذا قيل لي)، ولكنها لم يكن لها أي مفعول على مثل هذا الكائن الحساس؟ هل السبب هو تلك الحركة العفوية التي تصدرها كلتا يديَّ وأنا أمشي والتي التقطتها عيني مؤخرًا وأنا أنظر إلى زجاج المحلات؟ إنني منذ ذلك الموقف الذي اتخذه الدرواس ضدي وأنا لم أتوقف نهائيًّا عن التساؤل عن نوع التشوه (فهذا هو ما لا بد أن يكون) الذي يجعلني مختلفًا عن الآخرين؟ نعم،

فقد وصل بي الحال على مدار شهور إلى التفكير في أن ذلك قد يكون نتيجة لوجود تشوهات عميقة بداخلي. وأسوأ ما في الموضوع هو أنني كنت كلما وسَّعت نطاق تساؤلاتي، أكتشف بداخلي كثيرًا من الأمور التي تشذ عن الوضع الطبيعي. وعند ذلك وبعد أن جمعت كل الأمور التي وقفت عليها، بدأت تتكون عندي قناعة راسخة أنني لن أكتشف السبب الحقيقي؛ لأنه في الواقع قد يكون عقلي هو الشيء غير الطبيعي فيَّ، ولذلك فلم يكون بمقدوره التعرف على السلوك الفظيع كما ينبغي. وعلى الرغم من عدم تعاطفي مع الظواهر السخيفة مثل «جيش الخلاص»[١٢] وأتباعه البائسين، فلا بد أن أقول إن هناك تغييرًا جذريًّا، لا أدري للأحسن أم للأسوأ، لم يعد بالإمكان إنكار حدوثه في كياني بالكامل.

* * *

(١٢) هو منظمة مسيحية عالمية، وكان لها دور في أعمال الإغاثة في كارثة زلزال سان فرانسيسكو بأمريكا.

غلطةٌ

كارل كروكه، عامل خراطة سمين قصير من مدينة هاله آن در زاله، أتى إلى فرنسا عام ١٩٣٦؛ لأن الجستابو[١٣] كانوا مهتمين بأمره كثيرًا، ووجد له بعض الأصدقاء مأوى في منزل أحد عمال المعادن الفرنسيين في ضاحية باريس. لم يكن يتحدث كلمة واحدة بالفرنسية، ولكنه عرف معنى الـ *Front Populaire* [١٤]، وعرف أن ما قالوه له حين شاركهم تناول ذلك الخبز الفرنسي البديع كان شيئًا ودودًا. حظي كروكه بحياة هادئة مع هؤلاء الأشخاص، وكان يذهب بانتظام إلى البلدية ويحضر الاجتماعات التي ينظمها الأصدقاء الألمان حيث يعقدون النقاشات ويطالعون الصحف. ولكن بعد بضعة أسابيع بدأ لونه في الشحوب، وبدأ يشكو من وخزات مؤلمة في الجهة اليمنى من بطنه، فأعطاه الأصدقاء ورقة مكتوبًا فيها عنوان أحد الأخصائيين

(١٣) الشرطة السرية الألمانية.

(١٤) هي "الجبهة الشعبية"، وكانت منظمة تضم حركات اليسار في ذلك الوقت.

الماهرين، والذي أبدى استعداده كما قيل لفحصه مجانًا يوم الجمعة التالي في تمام الساعة السابعة. وشدَّدوا عليه أن يراعي الموعد بدقة؛ لأن الطبيب رجل مشغول للغاية.

لم تكن هناك حاجة لهذه النصيحة، فكروكه دائمًا دقيق في مواعيده، إلى جانب أن آلامه نغصت عليه حياته. نهض مبكرًا في تلك الجمعة، وأخذ ساق أحد السراويل التحتية القديمة ولفَّها بإحكام حول خصره، ثم انطلق إلى باريس سيرًا على الأقدام. لم تكن قلة المال هي السبب، ولكنه أراد توفير الأجرة؛ لأن لديه متسعًا من الوقت، بل مدة طويلة جدًّا في الحقيقة.

إنه شهر إبريل، والظلام لم يزل دامسًا في الشوارع. مرَّ بعض الوقت دون أن يقابل أي مخلوق. حالة الطريق سيئة؛ لأنه رهن التصليح، والحفر تملأ جنباته، ومع أنه ممتد في حقول مفتوحة إلا أنه لم تكن هناك رياح ولم يكن الجو باردًا. من حين لآخر كان يمر على بعض البيوت الريفية وتنبح عليه بعض الكلاب. أمَّا هو فلم يتمكن من رؤية الحقول ولا المزارع بسبب الظلام الدامس. لكن هذا لم يجعلها تبدو مألوفة له، فلم تكن هذه ألمانيا بالطبع.

من رحمة الله به أنه كان يسير في طريق عمومي، فلم يكن عليه اتخاذ أي قرارات عند مفارق الطرق، وإلا لواجه مشاكل مع اللافتات الإرشادية. كما أن بمقدوره أن يسأل الناس، فيكفيه أن يقول: «باغي؟» بنبرة متسائلة، فهكذا يُنطق اسم باريس في هذه المناطق.

بعد ساعة من الزمن قضاها ماشيًا، سمع صوت حصان وعربة تخشخش من ورائه، فتوقف وتركها تمر. كانت العربة تكتظ بالكرنب. أومأ إليه رجل مسن هزيل عندما سأله كروكه: «باغي؟»، لكنه لم يسأله الركوب مع أنه التفت، ونظر إليه مجددًا بعد أن ابتعد عشرة أمتار، وكأنه لم يزل منتظرًا دعوة كهذه.

وعندما مرت به العربة التالية، وكانت محملة بمخضات الألبان وتقودها امرأة مكتنزة، قام ببعض الإيماءات طلبًا للركوب. لكن المرأة لم تتوقف، لعلَّها تهيبت العصا الغليظة التي صنعها بنفسه من شجرة صفصاف، فالسير من دونها عسير مع هذه الآلام التي تعتصر جنبه.

هذان الموقفان جعلا الرجل القصير يتخلى عن أي محاولات أخرى لكي يوصله أحدهم في عربته، مع أن العربات بدأت تأتي تباعًا الواحدة تلو الأخرى. قوافل العربات الضخمة المحملة بالخضراوات والفواكه والألبان بدأت تتجمع في المدينة في الساعات التي تلت بزوغ أول شعاع للضوء من كل بقعة في الريف الخصيب.

تواصلت الخشخشة ووقع الأقدام فترة من الوقت. اضطر إلى السير على جانب الطريق؛ لأن الفلاحين لم يكترثوا بالتزام الجهة اليمنى، فلا تكاد تأتي أي مركبة في الاتجاه المعاكس، فباريس نائمة وليس لديها ما تقدمه للريف في الساعات المبكرة.

وصل عامل الخراطة إلى شريط السكة الحديدية وسار بحذاه. وعندما دوَّى نفير القطار، توقف في مكانه. لم يستطع قراءة لوحات

الاتجاهات المكتوبة على عربات القطار فقد كان يسير بسرعة شديدة، لكن القطار لا يمكن أن يكون قادمًا من ألمانيا فهو إلى الجنوب من المدينة.

في حدود الرابعة والنصف لاح الضوء في جنبات السماء. غيَّر المكان من شكله، فالحقول قد اختفت الآن، وها هي ضواحي المدينة. منازل صغيرة بحدائق ذات أشجار بديعة، وشوارع منازلها بها مقاهٍ مفتوحة للزبائن هنا وهناك. نادلون ناعسون بمريلات متسخة وشعور ملمَّعة يضعون الكراسي المجدولة على الرصيف، وعلى الكاونتر يضع السائقون أقداح القهوة والكونياك الخاصة بهم.

بعد ذلك تمتد بطول الطريق كثير من المشاتل والصوبات الخضراء والجدران المغطاة بالملصقات ولوحات الإعلانات الخاصة بالبلدية. الإسمنت يقوم بعمله.

في ذلك التوقيت تكون حمولات العربات قد وصلت الأسواق، ولا يتبقى سوى بعض المتأخرين الذين لم يزالوا يقودون خيولهم. لكن كثر الآن عدد السيارات التي سيتم تشغيلها عن قريب. هذا النوع من السيارات له غطاء أشبه ما يكون بالنعش ويغلب عليه اللون الأزرق. جاء الدور الآن على الباصات وعربات الترام المشحونة بالعمال.

كان الرجل السمين القصير القادم من هاله آن در زاله يمشي بخطوات ثابتة رغم ما يعانيه من إرهاق، والآلام في جنبه تزداد حدتها. جعل كلما مرَّ على مقهى ينظر في أكثر الأحيان إلى الساعات البيضاء الموجودة خلف البار، فهو عليه أن يكون في شارع سان ميشيل في

تمام الساعة السابعة.

على حدود الساعة الخامسة كان الضوء قد ملأ كل الأرجاء، وبعدها بنصف ساعة بدأ يشعر بحرارة الشمس. ومع دخوله حدود المدينة أصبح السير أكثر صعوبة على الحجارة والأسفلت، وفي وجود هذا الزحام أيضًا. فهناك عمال يحملون الجرادل، وعربة مياه كبيرة يتطاير الناس من شدة الهواء الصادر من مروحتها. كان هذا وقت غسل المدينة وتنظيفها. فالدوامة اليومية من تناول العشاء ودفع الإيجارات ومصروفات مدارس الأطفال وسجائر الجلواز، كل هذا يستلزم تنظيف المدينة.

كل هؤلاء الأشخاص الفرنسيين يعملون ويكدحون ويعيشون حياتهم. هذا الأمر كان يفهمه عامل الخراطة القادم من هاله آن در زاله؛ لأنه هو أيضًا كان يعمل ويكدح ويعيش حياته في ألمانيا. في الواقع هو لا يزال يكدح بالطبع، وبمعنى من المعاني لا يزال يعمل كذلك، ثم أليس يعيش حياته أيضًا؟ فالموتى لا يشكون من آلام في البطن.

سيكون سيره إلى شارع سان ميشيل عملًا من أعمال الكدح. المعارف والأصدقاء أدوا ما عليهم وأعطوه الورقة، والجبهة الشعبية هي الداعم القوي! أصبح السؤال الآن هو: «بولڤاغ سان ميشيل»؟

ها هو المكان، شارع جانبي ومبنى يحمل الرقم ١٢٣ وهو منزل مميز عالٍ يشغل مساحة ليست بالكبيرة. أشارت الساعة إلى السادسة والنصف، والسادسة والنصف لا تعني السابعة. المنزل لا يكاد يلوح

منه ما يدل على الحركة داخله، فليس أمامه إذنْ إلا الانتظار.

جلس عامل الخراطة في الناحية المقابلة. لمح أحد الخدم يخرج من المنزل، بعدها بفترة خرجت خادمة على رأسها قلنسوة، ثم خرج إلى الرصيف رجل بدين أحمر الوجه وجعل ينظر هنا وهناك. بعدها نزل أحد رجال الشرطة إلى الشارع، وكان عليه أن يذهب ويجيء إلى الركن المقابل حتى لا يبدو وكأن وجوده كعدمه. وضع رجال الشرطة حول العالم يتطلب ذلك، والأمر لا يختلف كثيرًا.

هي الآن السابعة. سار كروكه، وعبر الشارع، وصعد السلم. الوجه الأحمر المنتفخ الذي سبق ورآه ها هو على النافذة الموجودة في مدخل الردهة. إنه الـ«كونسييغچ»[١٥]! أراه كروكه الورقة المكتوب فيها اسم الطبيب. فقال له شيئًا مصحوبًا بكثير من الإيماءات والحركات التي لم يكن لها أي دور في توضيح المعنى المقصود! أنهى الرجل كلامه وهو يهز كتفه بانفعال، ثم أفسح له الطريق.

صعد السلم على سجادة حمراء مصنوعة من ألياف جوز الهند، يا له من منزل بالغ الأناقة! مؤكد أنه طبيب ممتاز. ها هي لوحته النحاسية. كل ما عليك فعله هو أن تدق الجرس. فتحت الباب إحدى الخادمات. نطق عامل الخراطة اسم الطبيب، فقد علَّمه زميله الفرنسي الذي يسكن معه كيفية نطقه ليلة أمس.

لكن الفتاة هزت رأسها في اندهاش، وقالت هي أيضًا كلامًا كثيرًا

(١٥) تعني بالفرنسية: البوَّاب. وقد كُتبت في النص هكذا *con-syersh* في إشارة إلى طريقة نطق الرجل للكلمات الأجنبية. والكلمة الأصلية هي *concierge*.

بهذه اللغة العجيبة، ومرةً أخرى لم تفلح الإيماءات المصاحبة في توضيح أي شيء من المقصود. وما الذي قد يستفاد من إشارته إلى الشقة بعصاه وإلى موضع الألم في بطنه بإصبعه؟ حينئذ أغلقت الفتاة الباب في وجهه.

حركاتها لم يكن لها أي معنى مفهوم إلا حركة واحدة، فقد أشارت إلى اللوحة النحاسية حيث أمكنه قراءة المكتوب عليها: «٥-٨». هذه بالتأكيد هي ساعات الاستشارة. لكن لا بد أنه سيدخل للطبيب في غير هذه الساعات، كما يُفترض طبعًا، فهو لن يقدر على دفع قيمة الكشف! هذا هو السبب إذنْ في تحديد الموعد في السابعة صباحًا، مع أنها ساعة غير معتادة، حتى يتمكن الطبيب من الكشف عليه قبل ساعات عمله الفعلية. وعلى حسب ما فهم من ذلك فالطبيب سيعمل وقتًا إضافيًّا من أجله إن جاز القول؛ لأنه مشغول فيما بعد، وهو أخصائي وكل دقيقة بالنسبة له تعني نقودًا، وهو في منزل فيه خدم وسجاجيد مصنوعة من ألياف جوز الهند، وهو ما يتكلف الكثير والكثير من المال. في لحظة كهذه كان التحدث بالفرنسية سينجده.

وقف قبالة الباب المغلق، وإذا بصاحب الوجه المنتفخ يقف أمام السلم بالأسفل وقد ازداد احمرار وجهه عن ذي قبل. ربما كانت تساوره الشكوك، فمؤكد أن العصا في حد ذاتها بدت مثيرة للريبة، إلى جانب بنطاله الذي لم يكن على الطراز الحديث. نزل عامل الخراطة السلم مجددًا ومرَّ على الـ«كونسييغچ»، وخرج من الباب.

لم يكن هناك شيء آخر يمكنه القيام به. قد يكون الطبيب نسي

أن يخبرهم بقدومه وبإدخاله مبكرًا. مثل هؤلاء الأشخاص رؤوسهم مزدحمة بكثير من الأشياء، ثم هذا الكشف مجاني. من المحتمل أيضًا أن الطبيب تم استدعاؤه لإجراء عملية جراحية، لكن في هذه الحالة كان لا بد من ترتيب موعد جديد سواء قبل أو بعد ساعات الاستشارة. لا فائدة من القيام بحركة متهورة. سيقابل أصدقاءه ليلة الأحد، ووقتها يمكن مناقشة الحركة التالية.

جلس الرجل القصير على عمود حجري عند جدار المنزل، وأخرج من الكيس الطعام الذي أعطاه إياه صاحبه وجعل يمضغ الخبز الأبيض. وبعدها شرع في سيره على مهل قاصدًا أطراف المدينة التي سيصلها في فترة ما بعد الظهيرة.

أمَّا الطبيب الفرنسي، وهو رجل ودود وخيِّر، فعندما سأل عن السبب في عدم مجيء المريض أخبروه أن الألماني قد افترض أن الساعة السابعة تعني السابعة صباحًا، فلم يكن يتوقع إطلاقًا أن يحصل على كشف مجاني في ساعات الاستشارة المعتادة. وما إن سمع الطبيب ذلك، حتى أصابه الذهول!

* * *